

كتاب الهلال

أوراق مصرية

سلسلة ثقافية شهرية

الدكتور عبدالله خورشيد

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايدة عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤١٦ - ذو القعدة ١٤٠٥ - أغسطس ١٩٨٥

NO , 416 August 1985

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية سبعة جنيهات و ٢٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية . وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بـــريشـــــة
الفنانة بسمية حسنين

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

أوراق مصرية

●

بقلم
الدكتور عبد الله خورشيد

●

دار الهلال

هذه الأوراق

من يرصد الحياة المصرية فى مرحلتها الحاضرة لاتستطيع عينه ان تخطىء ذلك الاحساس القوى ، والشعور الحى بمصر سواء فى المرحلة القديمة من تاريخها التى ابدعت فيها الاصول الكبرى للحضارة ، أو المرحلة القبطية التى قاومت فيها الوثنية مقاومة باسلة وصلت الى حد الاستشهاد الجماعى أو المرحلة العربية الاسلامية التى احتضنت فيها الاسلام ولغته العربية فى حماس وتسامح ، ووعى وابداع تجسم آخر الامر فى صورة رائعة للحضارة الاسلامية ، أو فى المرحلة الحديثة التى تتسم بالعمل الدءوب المستنير لدخول العصر مع الاحتفاظ بالشخصية الخاصة .

وما نشهده الآن مع الاهتمام بالتراث المصرى فى عصوره المتتالية ، وصوره المتنوعة علما وفكرا ، وفنا وأدبا ، ودينا وعقيدة ، وحكما وسياسة ، وحربا وسلاما ، الخ .. الخ هو الدليل الحى على هذا الاحساس القوى ، وذلك الشعور الحى . وهو اهتمام تشارك فيه الدراسة الجامعية ، والبحث العلمى ، والعمل السياسى ، والمقالة الصحفية ، والقصيدة والقصة ، والمسرحية والفيلم ، واللوحة والنحت ، والموسيقى والأغنية ، والبرنامج الاذاعى والتليفزيونى . مثلما أن شيوع عبارات : الانسان المصرى ، والشارع المصرى ، والشخصية المصرية وما أشبه هو من علامات ذلك الاهتمام .

وهذه الاوراق التى يسعدنى أن أقدمها اليوم من خلال كتاب الهلال فى تلك المرحلة المزدهرة ، صحفيا وثقافيا ، من حياة مؤسسة دار الهلال . هذه الاوراق هى جزء من حصاد معايشة عقلية علمية وجدانية فنية لتاريخ مصر وحضارتها ، بدأت تأخذ شكلها الاكاديمى منذ العام المقدس من القرن الحالى : عام ١٩٥٠ . وقد انصب التركيز والتعمق فى هذه المعايشة على حقبة محدودة جدا من تاريخ مصر ذى الطول والعرض والعمق ، هى هذه الحقبة التى تنحصر زمنيا بين حدثين تاريخيين أولهما هو فتح العرب لمصر سنة ٢٠ هـ ، وثانيهما هو الفتح الفاطمى لها سنة ٣٥٨ هـ . ولست أمل أن أعيد فى هذا المقام مالا أكف عن ذكره والتنبيه عليه من أن هذه الحقبة التى لم تمتد اكثر من ثلثمائة وبضعة وثلاثين عاما . ومع ذلك فإنها تشكل ، من وجهة النظر الحيوية ، البوتقة التى أجرى فيها الزمن فى معمل التاريخ عملية من أخطر ما عرفت مصر ، ذلك بأنها خرجت من هذه التجربة وقد أضافت فى حياتها الدينية القرآن الكريم الى العهد القديم والعهد الجديد ، وشيدت المسجد بجوار الكنيسة ، مثلما انطلقت فى حياتها اللسانية تتكلم لغة عربية فصيحة فى شئونها الرسمية ، ولغة عربية مصرية أو مصرية عربية فى أمور حياتها اليومية ، وهذا كله لا يعنى سوى أن تلك الحقبة كانت هى فترة المخاض التى تم بعدها ميلاد مصر الجديدة ، مصر العربية الاسلامية .

وهذه الأوراق هى لقطات منتقاة من تلك التجربة يركز فيها الضوء على جزئيات لها دلالتها وأهميتها من عناصر تلك العملية الكبرى . وعلى الرغم من فنية الشكل الذى أخرجت فيه هذه اللقطات فإن المضمون يقوم على أساس من الالتزام الصارم بالدقة المنهجية ، والأمانة العلمية .

الحصان الفاتح

لاشك فى أن الجيش الذى عبر به عمرو بن العاص حدود مصر الشرقية قادما من فلسطين سنة ٦٤٠م = ٢٠ هـ كان فى حوزته العدد المناسب من الابل التى تحمل الزاد والماء ، والمتاع والسلاح وربما النساء ، والتى تزود جنود ذلك الجيش باللبن واللحم فى نفس الوقت . لكن لا شك كذلك فى أن هؤلاء الجنود معظمهم ، إن لم يكونوا كلهم ، كانوا فرسانا لكل منهم حصان واحد على الاقل ، الامر الذى يعنى أن مصر قد دخلها حينذاك ما لايقل عن ثلاثة آلاف حصان عربى . وفى خلال عام ، ومع توالى الامداد لجيش عمرو تواليا ارتفع بعدد أفراد هذا الجيش الى حوالى خمسة عشر الفا ، يمكن أن يكون عدد الخيل العربية قد زاد بهذا القدر أو قريبا منه . ولنا أن نتصور احتشاد هذه الآلاف المؤلفة من الخيل فوق أرض مصر فى تلك الفترة القصيرة بما هى عدة حربية ، وطاقة قتالية ، وما يمكن أن يكون لها من أثر عميق وفعال فى سير الحوادث .

إن الجيش الذى دخل عمرو به مصر ، واستولى به على الموقع تلو الموقع : الفرما ، بلبيس ، أم دنين ، هليوبوليس ، الفيوم ، البهنسا ، بابليون ، نقيوس ، الكريون ، الاسكندرية ، مدن الساحل الشمالى ، مدن الدلتا ، الصعيد ..... إن هذا الجيش كان فى مصر معظمه جيشا من الفرسان وهذا يعنى أن مصر لم يفتحها الفارس العربى وحده وأنما شاركه فى ذلك مشاركة حقيقية حصانه العربى المدرب القوى ، ذو الخبرة السابقة بالمعارك وأهوالها ، وكرها وفرها ، والذى أعتادت أذنه قعقعة السلاح ، والفت خياشيمه رائحة النقع والدماء .

بعد أن أكتمل فتح مصر من بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) شمالا حتى أسوان جنوبا كان لابد لموجة الفتح التى ماتزال فى عنفوانها أن تواصل التقدم جنوبا متوغلة فى القارة الافريقية . فكان على الحصان الذى لعب دوره فى فتح مصر أن يعبر بفارسه العربى حدود مصر الجنوبية الى بلاد النوبة ، بلاد الأساود المحاربين الاشداء فى معركة دمقله العاصمة (٣١هـ) التى انتهت ، على الرغم من ضراوتها ، بتعادل الجانبين وعقد هدنه بينهما . كثيرون هم الابطال الذين سجلت الرواية أسماءهم فى ذلك القتال ، ولكنها لم تنس أن تسجل فى نفس الوقت بطولة الحصان فى جملة شعرية واحدة معبرة لاشك فى أنها أحد خطوط لوحة كبيرة صاغها أحد الفرسان للشعراء الذين خاضوا تلك المعركة :

لم ترعينى مثل يوم دمقله والخيل تعدو بالدروع مثقله

× × × ×

فى نفس الوقت ، وخلال السنين التالية حتى اخريات القرن الأول الهجرى ، اندفعت موجة الفتح العارمه غربا بمحاذاة الساحل الشمالى لبحر الروم تستولى على حصونه ومدنه الواحدة بعد الأخرى حتى تبلغ الساحل الغربى للقارة المطل على بحر الظلمات (المحيط الاطلسى) ، ثم تنثنى لتعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) لتثب على شبه جزيرة ايبيريا وتستولى على الجزء الاكبر منه الذى أصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم : الاندلس .

وهنا ايضا كان الحصان هو الذى حمل الفارس العربى من مصر الى شاطىء المحيط الاطلسى ثم الى الاندلس ابتداء من لوبية (ليبيا) ، ومرورا بأفريقيه (تونس) ، وانتهاء بالمغرب فى معارك طويلة مضنية تعاقب فيها النصر والهزيمة تعاقب المد والجزر تحت راية نفر من الابطال تلا بعضهم بعضا فى قيادة الجيوش العربية : عمرو بن العاص ، عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، معاوية بن حديج ، عقبه بن نافع ، حسان بن النعمان ، موسى بن نصير ،

طارق بن زياد .

أن مانحسه اليوم ونحن نقرأ أخبار تلك الفتوح من مشاركة الحصان فيها مشاركة حقيقيه تجعل منه محاربا فعليا قام بدوره فى شجاعه وصبر ، أحساس قد سبقنا اليه قادة تلك الفتوح ، وعبروا عنه تعبيرا عمليا يعكس تقديرهم الحقيقى لهذا الحصان وأهميته . لذلك جعلوا ـ تطبيقا لما شرَّعه الرسول عليه السلام منذ البدء ـ سهم الحصان من الغنائم ضعف سهم فارسه . فكان سهم الحصان فى أحدى معارك أفريقية الفين من الدنانير ، فى حين كان سهم صاحبه الفا فقط مثله مثل الراجل .

بل لقد تحول ذلك الحصان فى احدى الحكايات الى بطل أسطورى كان له الفضل فى أنقاذ جيش بأكمله ، هو جيش عقبة بن نافع ، من الهلاك عطشا تحت نار الشمس المحرقة فى قلب الصحراء القاتلة . فعندما قفل عقبة بجيشه متجها الى مقر قيادته بعد أن خاض عددا من المعارك أفتتح فيها مجموعة من القصور (المدن المحصنة) فى ليبيا نزل فى بعض الطريق ـ ربما ـ ليستريح ولكن حدث أن نفد كل الماء الذى تحمله الابل المرافقة للجيش فى القرب على ظهورها . وكان موقفا بالغ الخطورة ، فالاقامة فى المنزل تعنى انتظار الموت عطشا ، ومواصلة السير تعني السعى الى الشىء نفسه . ولم يكن أمام عقبة ما يستطيع عمله سوى أن يتجه الى الله بكل أيمانه وخوفه ورجائه فى صلاة طويلة عميقة . وبينما عقبة منخرط فى صلاته ودعائه تحرك جواده الذى كان يقف خارج الخيمة يكابد من الظمأ ما تكابده سائر الخيل وكل الرجال ، فسار خطوات قليلة توقف بعدها عند بقعة من الرمال ، وانحنى بعنقه نحوها وراح يبحث فى الرمال بيديه ليصنع حفره صغيرة لم تلبث حتى تكشفت عن صخرة ملساء لم تكد الرمال تنزاح عن جوانبها حتى انفجر الماء صاعدا من تحتها . وراح الحصان الظمآن يمتص الماء ، وينقع غلته ، ويسترد روح الحياة.

انتهى عقبة الذى شاهد ما حدث من صلاته وهو لا يكاد يصدق ما

يرى ، وأنفتل خارج خيمتة يصيح بفرسانه أن يقبلوا ويحفروا المنطقة هنا وهناك . وفى لحظات كان الرجال الاشداء الظامئون قد آحتفروا سبعين حفرة شربوا منها ماشاءوا ، وملئوا قربهم ليواصلوا بعد ذلك مسيرهم . لم ينقذ جواد عقبة جيشا كاملا من الهلاك فحسب ، ولكنه ايضا اكتشف أثمن ما يمكن أن يكتشف فى الصحراء : الماء . وتخليدا لذلك الحادث العجيب والاكتشاف الكبير أطلق على ذلك المكان منذ حينئذ اسم : ماء فرس .

ترى هل هذا الحصان المنقذ هو نفس الحصان الذى كان عقبة يعتلى صهوته على ساحل بحر الروم عند مدينة السوس من افريقية (تونس) قبل أستشهاده بقليل (٦٣) هـ ، متطلعا الى الافق الشمالى البعيد غير عالم بما يقع وراءه من أرض وبلاد ، ظانا ـ ربما ـ أنه قد بلغ نهاية العالم من ناحية الغرب ، فأقحم فرسه فى ماء البحر حتى بلغ نحره ثم قال : «اللهم أنى أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازا لجزت » لوحة رائعة لم تجد بعد ريشة الفنان .

× × × ×

هذا الحصان الفاتح ظل حوالى ثلاثة أرباع القرن منذ خرج من الفسطاط عاصمة مصر الجديدة متوجها شمالا الى الاسكندرية ، العاصمة القديمة ، لينطلق منها غربا ـ البحر عن يمينه والصحراء عن يساره ـ يحاصر المدن المحصنة حتى تسقط فيأسر سكانها ، ويغنم أموالها ، وثم يكر راجعا الى الفسطاط وقد أنهكه المسير ، وأضنته المعارك ، وأهزله الجوع ، وأصبح فى أمس الحاجة الى فترة كافيه من الراحه والهدوء والتغذية الجيدة . وهذا ما حققه له القائد الفاتح عمرو بن العاص من خلال رحلة الربيع ـ أى الخروج الى ريف مصر فى فصل الربيع ـ للارتباع والاستجمام . وكانت تعليمات عمرو الى الفرسان فى العناية بخيلهم صريحة بقدر ماهى صارمة أذ يقول :

" ...... وأربعوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها فأنها

جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأنفالكم .... ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا انى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته (مرتبه) قدر ذلك ...."

× × × ×

لم يكن هذا الارتباع السنوى المظهر الوحيد للاهتمام الذى كان الحصان يتمتع به حينذاك فعند تخطيط مدينة الفسطاط وتقسيمها الى خطط (أحياء) موزعة على القبائل لم ينس المهندسون الذين أشرفوا على التخطيط وتخصيص الفضاء الممتد بين حصن بابليون ونهر النيل لتعريق الخيل وتأديبها . وحمل هذا الفضاء الاسم الطبيعى له وهو : المضمار .

وحدث أن كان معاوية بن حديج ، أحد قادة الفتح ومن كبار زعماء القبائل يمر قريبا من ذلك المضمار فلفت نظره رجل على كثيب ممسكا برسن فرسه ، فأرسل غلامه لينظر من الرجل فاذا هو بأبى ذر الصحابى الكبير الشهير وكان قد أقام بمصر بعض الوقت عند فتحها . أدار أبن حديج فرسه وسار نحو أبى ذر الذى كان منهمكا فى العناية بفرسه . ألقى أبن حديج نظرة فاحصة خبيرة على حصان أبى ذر فلم يجد فيه من المزايا ما يوجب كل هذا الاهتمام به من ابى ذر ، فسأله مستفسرا : ياأبا ذر : أنى أرى هذا الفرس قد عناك ، وما أرى عنده شيئا . قال أبو ذر : هذا فرس قد استجيب له . وأدهش أبن حديج أن يسمع الصحابى الوقور يقرر ليس فقط أمكان صدور الدعاء من فرس بل ايضا أمكان استجابة السماء لدعوة ذلك الفرس ، فسأله مستنكرا : ومادعوة بهيمة من البهائم ؟ أجاب ابو ذر العليم بوثاقة العلاقة بين الفرس وفارسه ، وارتباط كل منهما بصاحبه ارتباطا حياتيا : أنه ليس من فرس الا أنه يدعو الله كل سحرية : اللهم أنت خولتنى عبدا من عبيدك وجعلت رزقى بيده . اللهم أجعلنى أحب اليه من ولده وأهله وماله

ومن الطريف أن نذكر هنا أن معاوية بن خديج هذا ، وهو الفارس البارع والمقاتل المحنك كان له اسلوبه الخاص والشاق فى تدريب ابنائه على ركوب الخيل ، اذ كان يصر ـ والأرجح أنه كان فى ذلك مقتديا بالرسول عليه السلام ـ على الا يكون لسرج خيلهم ركاب ، ويفرض عليهم أن يثبوا الى ظهر الحصان وثبا دون الاعتماد على ركاب ، فيضطرون بذلك الى المحافظة على لياقتهم البدنية كفرسان من حيث قلة الوزن ، وقوة العضلات وخفة الحركة مع أمتلاك القدرة على البقاء على صهوه الحصان بدون ركاب فى المعارك التى لايندر أن ينخلع فى أثنائها الركاب من السرج .

لم تكن الفسطاط ، وخاصة فى بداية أمرها بالمدينة الكبيرة الواسعة ، ولكن شيوخ القبائل وكبار القادة والزعماء كانوا يتنقلون بين أحيائها على صهوات جيادهم يسعى عبيدهم بين ايديهم . وكذلك اذا ذهبوا الى المسجد الجامع فى وسط المدينة لصلاة الجمعة ركبوا خيلهم . فلم يكن بد من ترك ما حول ذلك المسجد فضاء لتوقف فيه الخيل وتربط الى أن يفرغ أصحابها من شهود الصلاه أما دار الخيل التى بنيت فى وقت لاحق عند سفح جبل يشكر (يقوم على بعضه جامع ابن طولون حاليا) ، حيث كانت الخيل تباع وتشترى ، فقد أقيمت فى وقت متأخر نسبيا .

وليس بيطار بلال بالفسطاط سوى دليل على وجود محلات بيطرة لعلاج الخيل التى كانت الفسطاط تكتظ بها حينذاك .

× × × ×

مثلما ينبغ فى كل فئه من الناس أو مهنه من المهن افراد يتمتعون بالكفاءة العالية ، والتفوق الفذ ، فيتحولون فى سماء الشهرة الى نجوم لامعة تتطلع اليها الاعين ، وتتحدث عنها الالسن حدث ذلك بين الخيل التى دخلت مصر مع الفتح وبعده ، فسرعان ما ظهر لعدد منها مزايا التفوق وآيات النبوغ ما جعل منها نجوما ساطعه فى دنيا الخيل فى مصر حينذاك ، تعرف أسماؤها وتحفظ

أنسابها ، وتروى أخبارها .

تميز الأشقر ، أشقر صدف ، بالسرعة الفائقه التى شكلت عاملا هاما فى أكتشاف واحه الفيوم وفتحها ، ثم حماية المسلمين من غارات الروم الليلية قبيل الاستيلاء على حصن بابليون ، ثم فى أنقاذ الفرسان المحاصرين فوق كوم شريك .

على الرغم من أن عجلى ، أحدى خيل قبيلة عك ، كانت حبلى ، وكان المفروض أن يقعدها ذلك عن المشاركة فى معارك الفتح ، أو على الاقل يثقل حركتها ويقلل من كفاءتها ، فأنها شاركت فى تلك المعارك ، بل كانت أخف من غيرها حركة وأكثر سرعة ، مما جعل الشاعر ، ولعله صاحبها ، يسجل لها ذلك ويتغنى به فى قوله :

سبق الاقوام عجلى   سبقتهم وهى حبلى

وذاع ذلك الشعر بين الناس ، وذاعت معه شهرة عجلى ، الى أن التقى أحدهم يوما بالفارس صاحب عجلى فقال له مداعبا ، وربما مستهزئا : ما فعلت عجلى ؟ يشير بذلك الى الشعر المذكور . وجاءت اجابة الفارس موجعة اذ قال : أما أن لها فى أمك سَهمين ! ذاك بأن أم ذلك الرجل ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن خديج ، وهى قبطية ، كانت من نصيب أبيه عندما سُبيت فى احدى المعارك التى شاركت فيها عجلى عند افتتاح المدن المصرية بالدلتا .

أما الخطار ، أحد خيل قبيلة تجيب ، فقد بلغ من حسنه وأصالته ما أطمع فيه أمير مصر عبد العزيز بن مروان . ولما لم يستطع الحصول عليه الا بعد أن أصبح مشوها نتيجة قطع أذنيه بحيث لم يعد صالحا للظهور به ، فقد أحتفظ به عبد العزيز للانجاب فقط . وأنجب الخطار الذائد ، ثم أنجب الذائد الفرقد الذى أصبح أبا لسلاله أشتهرت بالسبق وعرفت بأسم : الخيل الفرقدية .

وليس يخفى تأنق الفرسان فى أختيار أسماء لخيلهم ذات دلالة . فالخطار الذى يتبختر فى مشيته مزهوا بنفسه . وذو الريش السريع كأنه طائر . وأبلق لخم لشدة بياضه . والجون لشدة

سواده ... الخ .

وطبيعى بعد ذلك كله أن يصبح سباق الخيل هو الرياضة الشعبية الأولى لدى جماهير العاصمة ، وأن يُخصص فى الفسطاط مكان معروف لممارستها يُعرف باسم ميدان الرهان ، ويُخصص لهذا السباق يوم بعينه هو يوم الرهان يحرص أمير مصر نفسه ، ومعه ـ ربما ـ كبار رجال الدولة ، على شهوده .

× × × ×

إذا كانت مصر قد عرفت الحصان منذ وقت بعيد فى تاريخها الفرعونى ، قد يرجع الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، حيث ظل الحصان حيوانا حربيا أرستقراطيا تقتصر ملكيته وأستعماله على الملك والامراء والقادة وعِلْية القوم ، فأن دخول الحصان العربى مصر مع الجيوش والقبائل العربية فى القرن السابع الميلادى يُعَدّ بِحَقّ بداية لصفحة جديدة فى تاريخ الحصان بمصر على نحو ما عرضناه هنا من دوره فى عمليات الفتح ، فقد انتشر هذا الحصان فى مدن مصر وقراها بانتشار العرب انفسهم فى تلك اللمدن والقرى ، وأنتقل استعماله مع الوقت الى المصريين ، وأصبح هو وسيلة الانتقال السريعة فى طول البلاد وعرضها مثلما ظل العنصر الاساسى فى المعارك والحروب .

ولقد ظل هذا الحصان يلعب فى الحياه المدنيه المصريه طوال أثنى عشر قرنا الدور الذى ورثه القطار ومن بعده السيارة فى العصر الحديث . مثلما ظل يلعب فى الحياة العسكرية الدور الذى ورثته الدبابة فى العصر نفسه .

رفيــــق الســلاح

أصاخ أهل الفسطاط السمع الى الناعى وهو يسعى متباطئا ويردد : أيها الناس : قد نفق الاشقر ، وأخوكم أبو ناعمه يجهز لدفنه عند خوخه داره فى خطتهم .

كثيرون ممن سمعوا النداء كانوا يغيرون أتجاههم ، أو يقومون من مجالسهم ، أو يخرجون من دورهم قاصدين الى خطه (حى) الصدف ليجدوا أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفى الفارس الذائع الصيت جالسا القرفصاء الى جدار داره ، فيلقون اليه التحية ويأخذون مكانهم فى صمت الى جانبه أو قبالته . وعند الخوخه التى تفضى من دار ابى ناعمة الى الدار المجاورة أنحنى رجلان يضربان الارض بفأسهما فى قوة ليصنعا حفرة طويلة عميقة .

ياالله . هكذا ينتهى كل شىء .

منذ أربع سنوات فقط كنت أعبر حدود مصر الشرقية لأول مرة مع فرسان الجيش العربى الزاحف من فلسطين الى مصر تحت أمره عمرو بن العاص . كان فرسى الذى أعتلى صهوته يتألق فى ضوء الشمس كقطعة من الذهب ، يدق الأرض بحوافره القوية ، ويتقوس عنقه المتين الى أعلى فى كبرياء ، وتتطلع عيناه اليقظتان الى الامام فى تصميم . لعله كان الاشقر الوحيد فى كل كتائب الفرسان ، لكن لانزاع فى أنه كان أرشق واجمل الافراس جميعا . بل لقد كان أسرعها جميعا ، بذلك شهد الكل وأعترف ، فما أكثر ماتسابقت جياد الفرسان فسبقها كلها ، لم يتخلف عن ذلك مرة واحدة ، حتى أصبح "أشقر صدف" رمزاً للسرعة يضرب به المثل .

× × × ×

لم تكن قواتنا القليلة العدد نسبيا ، بعد المعارك المظفرة لكن القاسية التى أشتبكت فيها مع قوات الروم من العريش حتى أم دنين ، قادرة على أن تفعل شيئا ذا بال بالنسبة الى حصن بابليون العتيد الذى تحتشد قوات هائلة من الروم خلف أسواره المنيعة السامقة التى ترتفع فى الجو كأنما تتحدى الزمان نفسه .

كان علينا أن ننتظر المدد الذى كتب أميرنا عمرو يطلبه من الخليفة . ولم يكن لدينا ما نفعل سوى أن نركض بخيلنا حول الحصن هنا وهناك نلمح أحد جنود الروم فوق قمة الحصن أو وراء فتحة من فتحاته ، فنفوق اليه سهامنا . وكان الربيع يوشك على الانتهاء مخليا مكانه للصيف القادم . وخشى عمرو علينا السأم ، فليس أسوأ للجندى من الفراغ الذى يضعف من همته ، ويطفىء من حماسته .

لم يكن بد من أن يبحث القائد عن معركة تجدد نشاط جنوده ، وتطرد البلادة عن نفوسهم وجسومهم معا ، ولكن أين يمكن أن تكون هذه المعركة ؟

أختار عمرو بضعه نفر من الفرسان المعروفين بالشجاعة والدهاء والحذر وأرسلهم يتجولون شمالا وشرقا ، وغربا وجنوبا ليتعرفوا على طبيعة البلاد ، ومواقع العدو . وكنت أنا واحدا من هؤلاء الفرسان القليلين .

كلفنى عمرو أن أسير جنوبا بغرب ، ولم يكن أسهل على ، ولا أحب الى من مثل هذه المهمة . فقوسي على عاتقى ، وسيفى الى جانبى ، وتحتى فرسى الاشقر بأذنيه المرهفتين اللتين تتصيدان النبأه ، وعينيه الحادتين اللتين تكشفان حتى الاشباح ، وسيقانه الصلبة الدقيقة التى تسبق الريح نفسها .

أخذت الجانب الغربى للنيل متجها نحو الجنوب ، وسرت لا أرى عن يمينى سوى الحقول الخضراء التى ماتزال تنبسط حتى تلتقى بالافق الغربى البعيد ، تتخللها أجام النخيل الكثيفة ، وتتناثر فيها

القرى الغارقة فى الضوء والسكون .. وعن يسارى يجرى النيل جسدا هائلا من الماء العذب الذى تتكسر مويجاته فى هدوء متجهة نحو الشمال . وكلما اقتربت من قرية تقوم على الطريق لكزت الأشقر فينطلق كومضة برق ويعبر القرية قبل أن تسترد النسوة شهقاتهن ، والرجال صيحاتهم . وبعد حوالى خمسين ميلا انقطعت الارض الخضراء ، واختفت القرى ، ولم يعد عن يمينى سوى رمال صفراء صامته ولكنها تحمل آثار اقدام الناس والدواب ، فَعُجت اليها ومضيت أسير غربا مستقبلا رائحه الصحراء التى طال بعدى عنها .

كنت سعيدا بلقاء الصحراء ، كما بدا الاشقر سعيدا مثلى ، غير أنى لم أكن أكف عن التساؤل بعقلى وعينى ولسانى ـ ولعل الاشقر كان كذلك يفعل ـ عما يمكن أن تضمره هذه الصحراء . لم يطل بنا المسير كثيرا حتى وجدنا الجواب يقوم أمام أعيننا فور خروجنا من أحد الشعاب . واحة كبيرة ضخمة ، ترتفع فيها المئات من أشجار النخيل تتراءى البيوت الاهله من بين جذوعها ، تحيط بها كروم العنب وحدائق الفاكهه ، وتنبسط خارجها الحقول الخصبة . هذه أذن "بيوم" الواحه الجميلة التى طالما سمعنا من أسرانا بوجودها هناك .

تمنيت لو أطلت الوقوف أملأ عينى بمعالم الواحه ومفاتنها ، غير أنى أنتبهت الى الاشقر اليقضان وهو يرفع قائميه فى الهواء ، ويستدير بعنقه نحوى لينبهنى الى عدد من جنود الروم يركضون نحونا على خيلهم . أدرت عنان الاشقر ولكزته لكزة أنطلق معها يسبق الريح ، ويثير الرمال . كنت أسمع حوافر جياد الروم تضرب الأرض من ورائنا ، وسهامهم تحاول أصابتنا ، ولكن كل لحظة تمضى كانت تباعد ما بيننا وبينهم . لم يكن الاشقر يجرى وأنما كان يطير . ويئس الروم من ادراكنا فتوقفوا وانقلبوا راجعين ، ومضى الأشقر ينهب الارض نحو الشمال ، لم يتوقف سوى مرتين

أو ثلاث حتى بلغنا معسكرنا عند حصن بابليون ، وأفضيت الى عمرو بما لقيت . وبعد أيام قليلة كانت معركة الفيوم

على الرغم من أن معركة الفيوم ، وما تبعها من معركة البهنسا ، كانت ذات أهمية بالغة بما فتحت باب الصعيد أمام قواتنا ، فقد كان مايزال أمامنا المعركة الكبرى ، معركة حصن بابليون الذى لامفر لنا من الاستيلاء عليه قبل أن نستطيع أن نتحرك خطوة واحدة نحو الشمال لفتح مدينة الاسكندرية العظيمة عاصمة مصر ، وأجمل وأهم مدنها فى ذلك الزمان ، لكن المدد لم يصل بعد ، ولا نستطيع خوض معركة جانبية أخرى ، فعدنا من جديد الى معسكرنا جنوبى الحصن ننتظر وصول المدد ، ونشتبك فى مناجزات فردية مع من تسول له نفسه من جنود العدو الخروج من الحصن والاقتراب من معسكرنا .

كنا فى قلب الشتاء الثانى لنا فى مصر ، وحدث أن غبت عن المعسكر أياما فى مهمة خاصة وجهنى فيها أميرنا عمرو ، ولما عدت سمعت زملائى الفرسان يذكرون أمرا عجبا . قالوا أنهم كلما وقفوا لصلاة الصبح فوجئوا بجندى رومانى يتسلل من خلفهم ، حتى أذا سجدوا أنقض عليهم فى خفه الفهد ، وراح يعمل فيهم سيفه فى سرعة ومهارة ، فيقتل من يقتل ويجرح من يجرح ، حتى اذا أنتبهوا اليه ، أنفلت هو الى برذون له أشهب يقف فى مكان قريب فوثب اليه وفر عائدا الى الحصن . وكم أسرع بعضهم الى جيادهم فركبوها ، وركضوا خلفه يطاردونه ، ولكنه فى كل مرة كان يسبقهم جميعا ويختفى داخل أسوار الحصن المنيعة قبل أن يدركوه .

غلا الدم فى عروقى ، وتطاير الشرر من عينى ، وتصلبت يدى على مقبض سيفى عندما سمعت هذا الكلام . كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ كيف يجرؤ هذا العلج الرومانى على التسلل الى معسكرنا فضلا عن الاعتداء على رجالنا وفرساننا ؟ لم أعلق على ما سمعت

بحرف واحد . أدرت ظهرى لرفاقى وأنصرفت . أحسست أن على وحدى تقع مسئولية وضع حد لهذه الغارة الخبيثة . غير أنى ، فى الحق ، لن أكون وحدى ، أذ لابد أن يكون صديقى العزيز ، الاشقر ، معى كما هو معى منذ أن خرجنا من شبه الجزيرة مع جيوش الفتح منذ عامين . لم يفارقنى ، ولم أفارقه . أصبحنا صديقين حقيقيين ، أسمع منه ويسمع منى ، وأفهم عنه ويفهم عنى ، وأخاف عليه ويخاف على ، وأتودد اليه ويتودد الى ، بينى وبينه كل ما بين الصديقين من حب وود ، وموثق وعهد ، ومشاركه وفهم ، وعطاء وبذل .

وكان السحر التالى ، وجعل الفرسان يستيقظون تباعا ، فيتوضئون وينشطون ، حتى اذا أنطلق صوت احدهم يشق السكون ، ويهز الوجود داعيا الى الصلاة وقفوا جميعا خلف أميرهم فى صفوف منتظمة متلاحمة .

لم أكن حينذاك بين رفاقى الواقفين للصلاة ، ولعل أحدا منهم لم ينتبه الى غيابى ، وأنما كنت كامنا مع حصانى الاشقر خلف تل ترابى صغير قريب من مكان الصلاة أرهف السمع ، وأحد البصر ، وأتشمم الهواء .

لم تمض لحظات حتى تناهى الى سمعى وقع أقدام ثقيل مكثوم . التفت الى الأشقر فوجدته يتجه برأسه وأذنيه وعينيه نحو مصدر الصوت القادم فى اتجاهنا من ناحية الحصن . لم تمض لحظات أخرى حتى تبينت فى جوف الظلام شبح الفارس الرومانى ، على ظهر برذونه ، يأخذ طريقه نحو جماعة المصلين فى حذر وتصميم . صبرت عليه حتى ترجل ومد يده الى حسامه ليمتشقه . وفى مثل لمح البصر طرت اليه بحصانى ولكنه أحس باقترابى فوثب إلى برذونه وأنطلق يعدو الى الحصن ، غير أنى لم ألبث حتى أدركته ، ثم سبقته بخطوات ووقفت أمامه أسد الطريق عليه .

ترجل عن برذونه فترجلت عن فرسى ودارت بيننا مبارزة شرسة بالسيف لم تلبث حتى انتهت عندما أغمدت سيفى فى صدره ، ثم

انتزعته لافصل به رأسه عن جسده وأنا أملأ الجو بالتكبير والتهليل . وهنالك فقط أنتبهت الى الأشقر وهو يصهل صهيلا حادا . التفت اليه لارى أغرب ما يمكن أن تقع عليه عين . البرذون الاشهب ملقى على الارض يشحج فى ألم ورعب ، ويضرب الهواء بأقدامه ، فى حين يتدفق الدم بغزاره من عنقه الذى قضمه الاشقر قضمة كبيرة عميقة بفكيه القويتين ، ولم يكتف بذلك بل راح يهوى على رأسه وبطنه بركلات قاسية من حوافره الصخرية .

كان البرذون يلفظ أنفاسه الاخيرة فى حين كان صاحبه يرقد مجندلا وقد فارق الحياة تماما . أخذت بعنان الأشقر ، وربت جسده الذى ينضح عرقا اهنئه وأشكره ، وأستدرت لاواجه نفرا من رفاقى الفرسان الذين خفوا الى المكان على هتافى وصهيل الاشقر . قال احدهم : حياك الله ابا ناعمة وحيا صاحبك الاشقر . لقد ثأرتما لنا وشفيتما صدورنا .

× × × ×

مر بعد ذلك الحادث الغريب ثلاثة شهور ، وكنا فى أواسط ثانى فصل من فصول الربيع نشهده فى مصر ، وكانت الامداد قد وصلت الينا أخيرا فزادت اعدادنا ، وقويت قلوبنا وأشتد تصميمنا على الاستيلاء على حصن بابليون الذى ظللنا نعسكر جنوبيه ، وندور حوله طيلة حوالى أربعة اشهر ، وتحقق لنا ذلك آخر الامر ، ووقع الحصن العتيد فى قبضتنا وجلا عنه الروم المنهزمون آخذين طريقهم بمقتضى معاهدة صلح ، شمالا نحو الاسكندرية العاصمة التى كانت ماتزال فى قبضة قوات رومانية أخرى كبيرة ، كان مايزال علينا الاستيلاء عليها وعلى مدن الساحل الشمالى وعلى مصر السفلى (الدلتا) جميعها .

تركنا حامية مناسبة تحتل الحصن وتحكمه ، فى حين تحرك جيشنا الكبير يزدهيه النصر ويمتلىء صدره بالثقة الى قلب الدلتا حيث لم نلبث أن وجدنا أنفسنا أمام المدينة المصريه العريقه ،

ذات التاريخ الطويل الذى يرجع الى أقدم عصور مصر : نقيوس .
هناك دارت معركة من أشد معارك الفتح عنفا وهولا أنتهت على أى حال ، بسقوط المدينة مثخنة بالجراح فى أيدينا ، وخروج فلول الروم منها هاربة الى الاسكندرية . وكان علينا أن نطاردهم فى نفس طريق هربهم نحو الشمال . وأختار قائدنا عَمْرو كتيبة من الفرسان الشجعان ، جعل على رأسهم الفارس العظيم شريك بن سمى الغطيفى أحد مشاهير رجال الفتح ، أمرها أن تسبق طليعه له ، فى أثر قوات الروم الهاربة على الطريق الى الاسكندرية . وكنا ، فرسى الاشقر وأنا ، من أفراد هذه الكتيبة .

سار بنا قائدنا شريك غربا لنصل بعد وقت قصير الى مدينة ترنوط التى عبرنا عندها الفرع الغربى للنيل ثم أدرنا خيلنا شمالا ليفاجأ بعد عدة أميال بقوات الروم متجمعة وقد لمت شتاتها ، ونظمت صفوفها ووقفت تسد علينا الطريق الى الشمال مستعدة لملاقاتنا فى معركة جديدة .

كان من المستحيل أن نتراجع لئلا يكون خزى الدهر ، وعار الابد . وكان دخول المعركة يعنى ابادة مؤكدة لكتيبتنا الصغيرة عن آخرها .

فكر قائدنا شريك فاحسن التفكير ، ودبر فأحكم التدبير . أمر بعض فرساننا فاشتبكوا فى منازلات فردية مع بعض فرسان الروم ، وفى أثناء ذلك أسرعت الكتيبة فانحازت الى تل ترابى عال كبير على جانب الطريق ، ملتجئه الى قمته العالية بعيدة عن متناول سيوف الروم وعن مرمى سهامهم .

كان موقعنا على قمه التل منيعا حقا ، ولكننا لم نكن لنستطيع البقاء هناك أكثر من بضعة ايام ينضب بعدها ماؤنا ، وينفد زادنا ، بل - وهو الاخطر - تفرغ سهامنا . وب . ذلك نصبح فريسة سهلة المنال لجنود الروم المعسكرين عند أسفل التل يتربصون بنا ذلك كله . لم يكن مفر من اختراق ذلك الحصار بطريقة أو بأخرى ،

وأبلاغ الامر الى عمرو الذى لم يتحرك بعد من نقيوس . لم يكن أمامنا سوى أن ينزل أحدنا بفرسه فيخترق معسكر الروم ويأخذ طريقه الى نقيوس . كان ذلك عملا انتحاريا لأن ذلك لن يقترب من الروم حتى تكون سيوفهم قد جندلته هو وحصانه فى غمضة عين . نجاح العملية كان يتوقف أذن على القدرة على اختراق الحصار فى سرعة خاطفة . وكنت اعلم ، كما يعلم الجميع ، أن الحصان الذى يستطيع أن يفعل هذا لايمكن أن يكون سوى فرسى : الاشقر .

لم أكد أعتلى الاشقر ، وأدير وجهه ناحية معسكر الروم اسفل التل ، وأمتشق حسامى ، حتى أيقنت أن الاشقر قد فهم تماما المهمة الدقيقة الخطيرة التى نتأهب لانجازها ، فانتصبت أذناه ، وأتسعت عيناه ، وأنطبق فكاه ، وصهل صهيل الجندى الشجاع المقدم على المعركة .

مهما ضربنا المثل فى السرعة بالريح أو بالبرق أو لمح البصر فعندى أن الاشقر كان أسرع من أولئك جميعا . لم أدرك من معسكر الروم سوى أشباح ترتد الى الوراء مذعورة ، ولم أسمع صيحات تنطلق مبهورة ، وكدت لا أصدق أننى أفلحت فى أختراق الحصار دون أن تمس شعرة منى ولا من الاشقر ، منطلقا جنوبا لاعبر النيل تجاه ترنوط شرقا ، ماضيا منها الى نقيوس حيث انتهيت الى عمرو المأزق الذى يقف فيه شريك ورجاله .

ما أن عرف عمرو الخبر حتى أصدر أمره الى الجيش الكبير بالتحرك . وما أن سمع الروم بتحركه حتى أمتلأت قلوبهم رعبا ففكوا الحصار عن التل ، وأستأنفوا الفرار الى العاصمة . وعند أسفل التل وجدنا شريكا يقف لاستقبالنا مع فرسانه ، ومنذ ذلك اليوم أصبح التل يعرف باسم : كوم شريك .

× × × ×

رفع أبو ناعمة رأسه ، وفتح عينيه كأنما يفيق من حلم طويل وقد أصبح وجهه صوره مجسمة للحزن البليغ ، آجال بصره فى رفاقه

ثْم آلتفت ناحية الخوخة . كان الرجال قد فرغوا من شق حفرة طويلة عميقه امامها ، وأسندوا فئوسهم وأرفاشهم جانبا ، ووقفوا يمسحون العرق عن جباههم ووجوههم بأذيال أثوابهم فى أنتظار تعليمات أبى ناعمه الذى طلب منهم فى صوت يخنقه البكاء أن يحضروا الاشقر .

وجد الرجال مشقة كبيرة في جر الحصان الميت الى الحفرة التى أنزلوه فيها وراحوا يهيلون فوقه التراب وقد وقف الجميع فى صمت تام ، وأحترام حقيقى يتصدرهم أبو ناعمة وهو يودع رفيق سلاحه الوداع الاخير محزون القلب ، دامع العين ، ولكنه فى نفس الوقت راضى النفس اذ رفض أن يلقى جثمان صديقه على الاكوام خارج الفسطاط حيث تطرح عادة الجيف والدواب ، وأبى الا أن يدفن كما يدفن المحاربون الابطال ، وأن يكون مرقده الاخير آقرب ما يكون الى داره ليظل بعد موته ، مثلما كان طوال حياته ، ملازما له يستجيب لقلبه كلما خفق . ولصوته كلما تحدث ، ويتابع خطوه كلما سار .

× × × ×

حفظت لنا الروايات الدور الحاسم الذى لعبته قبيلة الصدف فى معارك الفتح حتى أن عمرا كان يذكرها وهو يرتجز فى قلب المعارك ، كما حفظت اسماء وأعمال محاربى هذه القبيله وساستها وعلمائها فى حياة مصر من بعد الفتح . ولم تنس هذه الروايات أن تسجل بطولات الاشقر الذى لم يكن أشهر خيل الصدف فقط بل كان من أشهر خيل مصر جميعا ، والذى كان لايجارى سرعة . وأذا كان كوم شريك قد حمل اسم الفارس العربى شريك بن سمى ومايزال يحمله حتى اليوم ، فأن الخوخه التى دفن الاشقر عندها بالفسطاط قد حملت اسمه منذ تلك اللحظة كذلك ، وظلت تعرف باسم : خوخة الاشقر الى أن فقدت الفسطاط مكانتها كعاصمة فهجرها سكانها ، وتحولت مع الزمن الى أنقاض وأكوام .

رحلة الربيع

مصر : سبتمبر ٦٤٢ م

واخيرا توقفت المعارك . وصفا الجو من الغبار الذى طالما أثارته سنابك الخيل الى اعالى السماء . أما الخيل نفسها فقد رجعت الى مواقفها تعلك العلف وتضرب اعجازها بأذيالها . وآن للرجال ذوى العمائم ، والوجوه السمر ، واللحى المدببة أن يهدءوا قليلا ، وعادت السيوف الى غمدها ، والسهام الى جعابها ، ولم تعد الانوف تزكمها رائحة الدم والاشلاء المتعفنة ، وعندما أقلعت من الاسكندرية آخر سفينة تحمل الروم المهزومين الى بيزنطة تنفيذا لمعاهدة الصلح مع العرب الفاتحين كانت شمس عصر بأكمله تنحدر غارقة وراء الافق من بحر الروم ، فى حين كانت تتصاعد من الشرق شمس عصر جديد بعقيدته ونبيه ، وكتابه الدينى ، ولغته .

ويجيل المصريون بصرهم فيما حولهم لا يكادون يصدقون شيئا مما حدث. أحقا رحل الروم الغلاظ المتعجرفون ؟ كيف بالله تهاوت حصونهم الواحد تلو الآخر فى الفرما وبلبيس والدلتا والصعيد ؟ من كان يصدق أن يسقط بابليون العظيم ؟ والاسكندرية المنيعة ذات الاسوار ؟ ومدن الساحل التى طالما تحدت البحر والاعاصير ؟ والبهنسا حامية الصعيد ؟ والفيوم الواحة الفيحاء ؟ ستمائة وسبعون عاما متصلة من الحكم والسيادة تنتهى كحلم من الضباب ، ويرجع الروم من حيث أتوا وكان يظن أنهم باقون الى الابد .

ترى أين سيقيم الفاتحون الجدد ؟ يقال أنهم يعتزمون الاقامه في الاسكندرية . أميرهم تعجبه قصورها الضخمة وحدائقها الغناء ، وطرقاتها الواسعة ، لكن ملكهم الذى يسمونه "الخليفة" غير موافق ، و لا يريد أن يقيم جنوده فى مكان يفصلهم عنه فيه

بحر ، لماذا لا يحولون معسكرهم الذى ضربوا أول الفتح جنوبى بابليون ، بين النيل وتلال المقطم ، الى مدينة تكون عاصمة سياسية وقاعدة عسكرية في وقت واحد ؟ أنهم من هذا الموقع الوسط يستطيعون التحكم فى الدلتا شمالا ، والصعيد جنوبا ، والصحراء شرقا وغربا . ثم أليس هذا هو نفس الموقع الذى قامت حواليه من قبل : هوليوبوليس ، ومنف ، وبابليون ؟ وكذا كان . قوض العرب خيامهم وبيوت الشعر ليفسحوا الارض أمام المصريين البنائين المهرة ليقيموا مكانها بيوتا من اللبن من طابق واحد ولكنها واسعة ، وتولى ظهرها للطريق وتنفتح من الداخل على صحن الدار . أن هؤلاء العرب لايحبؤن أن تطلع العيون على داخل بيوتهم . ولا ينسى البناءون أن يقيموا فى مركز المدينة مبنى مستطيلا فسيحا يعرف باسم : المسجد الجامع لتقام فيه الصلوات اليومية وصلاة الجمعة . ويتخذ العرب لمدينتهم الجديدة نفس الاسم الذى طالما سمعوا الروم والمصريين يطلقونه على معسكرهم فيسمونها : الفسطاط تعريبا لكلمة : فسباطن .

الفسطاط : برمهات (آذار) ٦٤٤ م

الشمس أنتقلت الى برج الحمل ، وهبت ريح الشمال ، وتفرقت السحب ، قد جاء فصل الربيع ففتحت الحيات أعينها ، وبدأت هوام الارض تسعى ، وكثر الذباب الازرق ، وحان دراك الفول والعدس وأورقت الأشجار ، وأصبح اللبن الرائب أطيب ما يكون .

عمرو بن العاص ، فاتح مصر وقائد جيشها ، ينظر الى رجاله وهم قافلون من الغزو وقد برزت وجناتهم ، وغارت عيونهم ، ويبست جلودهم ، فى حين هزلت خيلهم فتقلصت أشفارها ، وبدت عظامها ، وضمرت بطونها . لابد لهؤلاء الرجال وخيلهم من فترة من الدعة والاستجمام يريحون فيها أجسادهم المرهقة ، ويستردون قواهم المنهكة ، ويستعدون لاستئناف الغزو على أمتداد سواحل أفريقية الشمالية . ما أكثر الكور (الاقاليم) فى مصر ، أسفلها

وأوسطها وأعلاها ، وما أكثر القرى المتناثرة فى هذه الكور ، وما أوسع وأخصب الحقول المنبسطة حول هذه القرى ، وما ألطف الجو الآن وأنسبه للخروج الى ريف مصر الرحب الممرع . فلينطلق فرسان كل قبيله الى كوره من هذه الكور ، فيضربوا مضاربهم خارج احدى قراها ، وليقيموا هناك حتى أخريات الربيع ينعمون بالطبيعة الحلوة وينالون من طعام الريف الشهى ، ويطلقون خيلهم ترعى فتشبع ، ثم يعودون وقد أصبحوا جميعا أرضى ما يكونون نفسا ، وأقوى ما يكونون عزما على أستئناف الجهاد فى سبيل الله .

وفى مسجد الفسطاط الجامع يخطب عمرو رجاله فيقول :

"قد حضر مَرَافق ريفكم فانصرفوا . فاذا حمض اللبن ، وأشتد العود ، وكثر الذباب فحى على فسطاطكم . ولا أعلمنَّ ما جاء أحدكم قد أسمن نفسه وأهزل جواده"

× × × ×

احدى قرى مصر : برموده (نيسان) ٦٤٤ م

الشمس الرقيقة التى قد حلت برج الثور تأخذ طريقها فى رفق نحو كبد السماء الصافية العميقة ، والهواء لطيف منعش ، والقرية الكبيرة ذات البيوت المتلاصقة ، والدروب الضيقة المتعرجة تقوم فوق تل ترابى كبير ، تحيط بها مساحات واسعة من حقول الفول الأخضر والقمح الذهبى والخضراوات . طريق زراعى ممهد يمر تحت القرية متجها نحو الغرب حيث تنتهى الحقول وتبدأ الصحراء . على جانبى الطريق أعمدة ظليله من أشجار السنط وأشجار الجميز الذى ظهر البطن الاول منه . من بين بيوت القرية ترتفع أشجار النخيل الرشيقه يظهر من بينها برج كنيسة يعلوه الصليب . الرجال فى الحقول يزرعون ويحصدون . الورد فى أوج أكتماله وأبهى جماله . والعصافير لاتنقطع شقشقتها وهى تتطاير هابطة صاعدة ما بين الارض والاشجار والجدران . جو عام من الهدوء الرزين والصفاء الحزين .

سحابة كبيرة من الغبار الكثيف تعلو فى الجو فجأة من ناحية الشرق عند أول الطريق الزراعى المؤدى الى القرية . السحابة تقترب شيئا فشيئا فى اتجاه الغرب . يسمع وقع سنابك الخيل القادمه وهى تدق الارض فى ركضها وتثير الغبار من خلفها . السحابه تتوقف على الطريق أمام القرية الكبيرة ، وينقشع الغبار ليكشف عن مجموعة من الفرسان العرب قوامها حوالى مائه رجل يتنكبون القسى ، وتتدلى السيوف من جوانبهم ، وتلتمع عيونهم السوداء النفاذه من خلال وجوههم السمراء الصارمة . العصافير تهرب الى أغصان الاشجار ، والرجال الذين يعملون فى الحقول يتوقفون عن العمل ويتطلعون بأعينهم ناحية القرية ، فى حين يسرع الافراد الموجودون عند مدخل القرية الى دار المازوت (رئيس القريه) يطيرون اليه النبأ .

لاتمر لحظات حتى يكون المازوت على الطريق بين يدى قائد الفرسان الذى ما يزال هو ورجاله على خيلهم ، فى حين يقف ، مترجلا عند برذونه ، رجل تدل ملامحه وهيئته على أنه قبطى (مصرى) يخاطب مازوت القرية بلغته فيطلب منه أن يختار موقعا مناسبا خارج القرية ينزل فيه الفرسان ، ويضربون خيامهم . ويحدد له مسئولياته وواجباته طوال أقامتهم التى قد تبلغ الشهرين .

عبر طريق جانبى ضيق متعرج تأخذ الخيل طريقها بين الحقول الى بقعة واسعة نسبيا من الارض الخاليه شمالى القرية . يترجل الفرسان عن جيادهم ، وينزلون أمتعتهم ويشرعون فى أقامة خيامهم ، فى حين تتجه الخيل نحو حقل البرسيم فتميل بأعناقها نحو النبات الريان وتمضى تقتلعه وتمضغه وهى تضرب أعجازها بأذيالها ذات اليمين وذات الشمال . وتدب فى القرية حركة غير عاديه ، ينتظم بينها وبين الخيام صف من الرجال غادين رائحين ينقلون الى القادمين الجدد أوعية الماء ، وحزم الحطب والخشب ، وأكياس الدقيق ، وقُعْبان اللبن ، وأوانى السمن ، وأقراص عسل

النحل ، مثلما ساقوا اليهم عددا من رؤوس الغنم . وعندما مالت الشمس نحو الافق الغربى كان كل شىء قد اتخذ مكانه فى المعسكر الصغير الذى بدا ، على الرغم من أنه لم تمض على اقامته سوى ساعات قليلة ، وكأنه يقوم هناك منذ وقت طويل .

* * * *

كم هم بسطاء وجادون ومنظمون هؤلاء الفرسان القادمون عبر الصحراء الى أرض النيل . أما ثيابهم فقميص وسراويل على الجسد ، وعمامة على الرأس ونعل فى القدم . وأما طعامهم فاللحم المسلوق ، وخبز الملة ، واللبن والتمر ، وأما فراشهم فالصوف الخشن أو الليف القاسى إن لم يكن الارض العارية . يستيقظون أذا كان السحر فيغسلون وجوههم وأطرافهم بالماء البارد ، ثم ينطلق صوت أحدهم يشق أجواز الفضاء الغارق فى السكون يكبر الله ، ويشهد بوحدانيته ورسالة نبيه محمد ، ويدعو الى الصلاة والفلاح . ثم ينتظمون صفوفا متراصة متلاحمة خلف قائدهم ، متجهين جنوبا بشرق ، ويقرأ قائدهم ، ثم يركع فيركعون ، ويسجد فيسجدون ، ويقوم فيقومون . انهم يصلون . وهكذا يفعلون مرة أخرى عندما تتوسط الشمس السماء ، وثالثة عندما تصبح ظلال الاشياء فى مثل طولها ، ورابعة عقب أن تغرب الشمس ، وخامسة بعد أن يحتلك الظلام . وفى النهار يصلحون قسيهم ، ويبرون سهامهم ، ويشحذون سيوفهم ، ويرعون جيادهم . وما أكثر ما يثب احدهم الى صهوة جواده فى خفة العصفور ثم ينطلق فى سرعة الريح فوق الطريق الكبير غربا حتى يبلغ الصحراء فيظل يعدو هنا وهناك سعيدا بالرمال الصفراء التى تعيد اليه ذكرى الصحراء الام . وما أكثر ما يتجمعون بين خيامهم يتحدثون ويتذاكرون ، ثم يمضى احدهم يتلو ما يحفظ من القرآن والجميع ينصت فى صمت وخشوع . حتى اذا كان الليل أو قدوا نارا فى ساحة المعسكر وأخلدوا للنوم فى أنتظار ساعة السحر .

الايام تمر هادئة طيبة ، الفلاحون يخرجون الى حقولهم فى مواعيدهم المألوفة فيزرعون الخيار شبنبر والملوخيا والباذنجان ، ويقلعون الفجل ، ويكسرون الفول ، ويحصدون القمح وينفضون بذر الكتان ويقطعون أخشاب شجر السنط ، فى حين يأخذ الجنود العرب حظهم من الاستجمام ، ويؤدون صلواتهم ، ويقرأون قرآنهم ، ويروضون جيادهم التى أخذت تمتلىء وتسترد قواها . وقد يقف أحدهم فوق صهوة جوادهم يتأمل الفلاحين وهم يزرعون النبات الجديد أو يحصدون النبات الناضج وكأنهم يرون ذلك لأول مرة . أما القرية فيخيم عليها الهدوء وتمضى الحياة فيها على مألوفها ، وتدق أجراس كنيستها فى الصباح وعند الغروب ، ويتناقل الاهلون ما يلحظون من أعمال جيرانهم الجدد ونظام حياتهم .

القرية الكبيرة نفسها :. بشنس (أخريات آيار) ٦٤٤ م

الشمس حلت أول برج الجوزاء . الرياح الشمالية هى السائدة . الفاكهة كثيرة وقد بدأ البطيخ والمشمش والخوخ فى الظهور ، الحصاد على أشده ويعقبه الدراس وهدار الكتان ونفض البذور والتقاوى والأتبان وحملها . الفلاحون يجنون الورق الأبيض ، وفى نفس الوقت يزرعون السمسم والبلسان .

ينبغى للفرسان العرب أن يشدوا الرحال عائدين الى الفسطاط اذ لم يبق الا قليل وتحل الشمس أول برج السرطان ، ويتنفس النيل وتهب ريح السموم ، ويبدأ فصل الصيف .

وذات سحر يتناهى الى المستيقظين من أهل القرية أصوات حركة غير عادية صادرة من ناحية المعسكر أعقبتها بعد فترة أصوات سنابك خيل كثيرة تدق الأرض وهى تركض متجهة نحو الشرق ولما أضاء الصباح وتطلع الاهالى ناحية المعسكر لم يجدوا أثراً للخيام . انتهت رحلة الربيع وأنصرف الضيوف .

الفسطاط : أخريات أمشير (شباط) ٦٦٠ م

الربيع على الابواب . قبائل الفسطاط تعد العدة للخروج الى مرتبعاتها في رحلتها السنوية التى لم تتوقف منذ بدأت . أصبح لكل قبيلة كورة ثابتة تخرج اليها ، وتقيم خارج قراها فترة تمتد من أوائل برمهات الى أواسط بشنس . هذيل مثلا تذهب الى بنا وبوصير في وسط الدلتا ، وآل عمرو بن العاص الى منف ووسيم بالقرب من العاصمة الفسطاط ، والصدف الى الفيوم غربا ، وحمير الى بوصير وقرى اهناس فى مصر الوسطى الخ الخ . لقد أصبحت رحلة الربيع هذه ، أو الارتباع ، جزءا ثابتا في حياة كل قبيلة من قبائل مصر مثلما أصبحت موسما سنويا ثابتا من مواسم ريف مصر .

كان عمرو قد عزل عن أمره مصر سنة ٢٤ هـ (٦٤٥ م) . وجرت بعد ذلك أمور وأمور أنتهت بأن عاد عمرو الى مصر وفتحها للمره الثانية سنة ٣٨ هـ (٦٥٨ م) وحكمها من جديد .

اليوم يوم الجمعة وقد تكدس الناس فى مسجد الفسطاط الجامع ينتظرون أداء صلاة الجمعة هاهو ذا عمرو فاتح مصر وأميرها ، وسيد برها وبحرها ، وصاحب صلاتها وحربها وخراجها يدخل المسجد والشرط بين يديه يفسحون له طريقا بين الجموع ليأخذ مكانه واقفا في مقدمة المسجد قَصْد القامة وافر الهامة ، أدعج ابلج ، عليه ثياب موشية كأن به العقيان تأتلق . عليه حلة وعمامة وجبة .

ويخطب عمرو الناس فيحضهم على الزكاة وصلة الارحام ، ويأمر بالاقتصاد ، وينهى عن الفضول وكثرة العيال والقيل والقال . ينصحهم بأن يوفروا لأنفسهم وقتا من الفراغ يريحون فيه أبدانهم ويثقفون عقولهم . ثم يشير الى دنو فصل الربيع فيهيب بهم أن يخرجوا الى الريف لينالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، ويأمرهم بالعناية بخيلهم وتسمينها ، ويحذرهم الوقوع فى شرك

النسوة المومسات المعسولات ، ويذكرهم بوصاة النبى (صلعم) بالقبط خيرافيأمرهم بالعفة والرأفة معهم .

القرية المصرية الكبيرة : ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) .

القرية الكبيرة تبدو وكأنها لم تتغير . البيوت الجديدة لاتكاد تختلف عن البيوت القديمة التى حلت محلها فى نفس مكانها ، نفس الطراز المصرى الريفى ، ونفس اللون الترابى ، ونفس أكداس الحطب التى تعلو البيوت ، ونفس الطرقات المتربة التى تتعرج بين البيوت ، حتى برج الكنيسة مايزال قائما فى مكانه يعلوه الصليب ، ولكن يقابله فى الطرف الآخر من القرية مئذنة بيضاء يعلوها هلال . أما أهل القرية فلم تتغير ملامحهم ولا ملابسهم ، الا أنهم يتكلمون العربية ، ويذهب معظمهم الى المسجد للصلاة . عدد قليل منهم هو الذى مايزال يذهب الى الكنيسة . والارض الخالية خارج القرية لم تعد خالية ، قامت فيها مجموعة من الدور من نفس الطراز تبدو فى مجموعها قرية صغيرة أشبه بضاحية القرية الكبيرة وتعرف باسم "النجع" . أن سكان هذا النجع هم سلالة أولئك الفرسان الذين ضربوا خيامهم هناك لأول مرة فى فصل الربيع منذ أكثر من قرنين من الزمان . ظل أولئك الفرسان يترددون كل ربيع ما بين الفسطاط والقرية الكبيرة ، وفى كل مرة يقتربون نحو أهل القرية خطوة ويقترب اهل القرية نحوهم خطوات . وذات ربيع حضر الفرسان الى القريه ولكنهم لم يعودوا الى الفسطاط . ظلوا مقيمين طوال الصيف ، وطوال الخريف ، وكل الشتاء . وعاد الربيع ليجدهم فى مكانهم لم يبرحوه . وشيئا فشيئا أختفت الخيام لتقوم مكانها بيوت اللبن . ولم يعد الحصان الحيوان الوحيد فى هذه البيوت أذ سرعان ما أنضمت اليه الابل والغنم والابقار . ولم يعد السيف العمل الوحيد لهؤلاء الفرسان فقد ملكوا الارض ، وأستأجروا أهل القرية لزراعتها . ومع الجوار المستمر ، والعلاقات اليومية المتبادلة تعرف كل طرف بالطرف الاخر ، وتأثر به وأثر فيه . عرف العرب النباتات المصرية ومواسم زراعتها ، وكيفية بذرها وتنميتها وحصادها ،

وعرفوا فصول السنة المصرية ، وخصائص كل فصل ، وعرفوا طبيعة النيل ، وموعد فيضانه وتجريفه . لم يصبح هؤلاء العرب فلاحين يعملون فى الارض بأيديهم ، ولكنهم أصبحوا ملاكا يرتبطون بالارض ، ويعتمدون على أنتاجها فى معاشهم . وعرف المصريون عقيدة العرب ووجدوها تعترف بعقيدتهم وتتفق معها فى جوهرها الصحيح . وعرفوا شريعتهم ورأوها سمحة عادلة . وعرفوا قيمهم ووجدوها إنسانية راقية ، لاتتنافى مع قيمهم . وكان يحدث ، وهو طبيعى ، بين الحين والحين أن يختار أحد الرجال العرب من سكان النجع فتاة قبطية من سكان القرية زوجة له تنضم الى زوجاته العربيات وتأخذ عنه دينه ولغته ، وتنجب منه بنين وبنات العرب اباؤهم والمصريون أخوالهم ، ويشكلون مع الزمن جسورا قويه دفينه تربط ما بين هؤلاء الاباء والاخوال برباط حميم من الدم والدين واللغة . وينشأ من خلال ذلك أجيال جديدة من العرب المصريين أو المصريين العرب كان لهم دورهم الهام فى صنع وتشكيل مصر الجديدة ، مصر العربية لغة وأنتماء ، الاسلامية دينا وحضارة .

أن دخول العرب مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) لم يكن سوى الايذان ببدء عملية حيوية هائلة فى رحم التاريخ تفاعلت فيها ، على مدى ثلاثة قرون ، عناصر الشخصية العربية الوافدة وعناصر الشخصية المصرية المقيمة تفاعلا بطيئا هادئا ، لكنه عميق وجذرى ، أقتصاديا وطبقيا ، ولغويا وفكريا وفنيا ، وروحيا،وفى كلمة حضاريا انتهى بميلاد مصر الجديدة العربية الاسلامية ، التى أصبحت منذ ذلك الحين وحتى اللحظة أخصب وأرقى مهد للحضارة الاسلامية .

أن التناول العميق الجاد لعملية التفاعل تلك ، وفى جوانبها المختلفة ، وأجب مايزال ينتظر جهود المتخصصين لانجازه ، وستظل رحلة الربيع ، أو حركة الارتباع التى التفت اليها ذكاء عمرو المتوقد ، محتفظة ، بمكانها المرموق ودورها البارز فى ذلك كله .

رجال متمردون

١ - جنود من عسل

لعبت مصر دورا أساسيا فى الثورة التى أنتهت بمصرع الخليفه عثمان فـى ذى الحجه ٣٥ هـ . وفرض الخليفه الجديد ، على بن ابى طالب ، سلطانه على مصر أذ كان له فيها أنصار أقوياء من نفس الزعماء الذين نفذوا الانقلاب الخطير . وسرعان ما تكتل - كرد فعل مضاد - المطالبون بدم عثمان فى تشكيل عسكرى قوى ، وتمردوا على السلطة الجديدة ، وأشتبكوا معها فى صراع مسلح فى الصعيد وفى الشمال أنتهى بهم الى أن عسكروا فى خربتا يرقبون سير الحوادث بعيدين عن السلطة المركزية التى أضطرت الى مهادنتهم .

وهكذا لم تصبح مصر ميدانا صريحا للصراع بين المعسكرين منذ اللحظة الأولى فحسب ، ولكن أصبحت كذلك العامل الحاسم فى هذا الصراع أذ كان واضحا أن النصر النهائى سيكون فى جانب المعسكر الذى يستطيع أن يتحكم فى موقعها الهام ويسيطر على مواردها الضخمة . ولما كان عمرو بن العاص ، القائد الخبير بمصر ، يعرف ذلك تماما ، وكان فى الوقت نفسه يتحرق شوقا الى العودة الى حكم مصر التى تعدل ولايتها الخلافة فى رأيه ، فأنه لم يكف عن تحريض معاويه ، زعيم المعسكر العثمانى القائم فى دمشق ، على المبادره الى أنتزاع مصر من قبضة على .

وبالرغم من أن العثمانيين المعتصمين فى خربتا كانوا عشرة الاف من وجوه أهل مصر ، فإن والى على هناك - قيس بن سعد الصحابى ، الانصارى ، السيد ، الجواد - كان سياسياحكيما أستطاع أن يعتمد على صلاته الشخصيه ببعض زعماء أهل خربتا

وعلى مسلكه الكريم الرفيع ، فى عقد هدنة غير مكتوبة بينه وبينهم ، أخلدوا بعدها الى الهدوء التام .

لكن معاويه الداهية راح يصور سياسة قيس هذه التى شلت حركة العثمانيين فى مصر وحرمته من التسيد عليهم عسكريا ، على أنها اتفاق سرى بينهما ويعمل على أن يصل ذلك الى على الذى لم يلبث حتى شك فى قيس فعزله بعد أربعة أشهر فقط "رجب ٣٧ هـ " .

لم يكن معاويه قد فرغ بعد من تلقى التهنئه بنجاح سياستة حتى فوجىء بعلى يختار لمصر رجلا عنيفا من رجال الحرب لا يعدل بطولته وبطشه سوى ولائه لعلى ذلك هو الاشتر النخعى ، مالك بن الحارث الذى أثار العجب والاعجاب فى موقعه الجمل (٣٦ هـ) حين تماسك مع عبد الله بن الزبير أبن أخت عائشه ـ وكان أيضا من الابطال فلم يزل يضربه حتى كاد يمزق أعضاءه لولا قرابته من رسول الله ، وعبد الله يصيح وهو واقع تحته :

اقتلانى ومالكا وأقتلا مالكا معى

لم تفقد المفاجأة السيئة معاويه دهاءه ، بل بادر الى التدبير للتخلص من هذا الوالى الجديد الذى توقع أنه سيجد فيه خصما شديد المراس . فاتفق مع صاحب خراج القلزم على أغتياله حين وصوله اليه فى طريقه الى عاصمة حكمه ، وذلك فى مقابل مكافأة كبيرة .

وصل الاشتر القلزم قادما من العراق ، ونزل ليستريح ويريح دوابه أستعدادا للجزء الأخير من الرحلة الشاقة . فقدم اليه صاحب الخراج تكريما له ، ووفاء بحق ضيافته طعاما من بينه عسل مسموم لم يكد يشربه حتى مات .

طار الخبر الى عاصمة الدسائس دمشق ، فارتاح معاويه الى النجاح الجديد الذى أحرزه ضد منافسه على . فى حين علق عمرو على ذلك اللون الغادر من الصراع بقولته الساخرة : "أن لله جنودا من عسل !"

أما على فقد جزع لفقد الاشتر جزعا شديدا ، وراح يتفجع عليه بقوله : "لله مالك ، لو كان جبلا لكان من جبل فندا ، ولو كان من حجر لكان صلدا . مثل مالك فلتبك البواكى . فهل موجود كمالك ؟" فوالله - يقول الراوى - مازال متلهفا عليه ومتأسفا حتى رأينا أنه المصاب دوننا .

وشاركت النساء الرجال فى بكاء الاشتر بشعر جميل سجل بطولته وشجاعته مثلما صور مصرعه الغادر اللئيم . قال أحدهم :

فقل لابن هند : لو منيت بمالك
وفى كفه ماضى الضريبة باتك
لالفيت هندا تشتكى علن الردى
تنوح وتحبوها النساء العواتك

٢ - ولكن الله أراد خارجة

محمد بن أبى بكر الصديق هو الوالى الذى هيىء له أن يشغل المنصب الحساس الشاغر فى مصر عام ٣٧هـ . ولم يمنحه على ثقته لأنه ابن الصديق الاول للرسول فحسب ، ولكن لأنه ربيبه كذلك وشهد معه الجمل وصفين . ولاشك أن حداثة سن الوالى الجديد ، الى جانب بعض صفاته الشخصية ومنها : الغرور والتسرع ، هى التى دفعته الى أن يبدأ حكمه بالتحرش بالثوار القابعين فى خربتا ، فهدم دورهم فى الفسطاط ، ونهب أموالهم ، وسجن ذراريهم . ولكنه لم يلبث حتى كف عنهم حالما تأكد من وعورة جانبهم . ثم ارتكب خطأ فاحشا عندما آثر السلامة فتوهم أن خير حل لمشكلتهم أن يسمح لهم - وهم عشرة الاف مقاتل ، أى جيش كامل - بالخروج من مصر الى الشام حيث انضموا الى قوات معاويه التى تتحين الفرصة للانقضاض على مصر . أدرك معاويه أن الكمثرى قد نضجت فأذن لعمرو - تنفيذا لاتفاق مفروغ منه - أن يتحرك لقطافها . واستطاع عمرو ، الذى يعرف كل شبر فى

مصر أن يفتحها للمرة الثانية بعد معركة رهيبة فى المسناة فى صفر ٣٨ هـ .

وبذلك تمتد مرحلة هامة فى الصراع بين على ممثل الاتجاه المثالى ومعاويه ممثل الاتجاه الواقعى . غير أن الامر بدا غريبا فى الدولة الاسلامية ، ففى الكوفة يوجد على الخليفة الرسمى الذى لايتجاوز نفوذه حدود العراق وشبه الجزيرة فى حين يقوم معاويه فى الشام خليفة غير رسمى له استقلاله التام ونفوذه الكامل . وفى مصر يتبع عمرو سياسة معاويه ولكنه مطلق التصرف فى خراجها يستولى عليه كله بعد أن يدفع مرتبات الجند ونفقات الشئون العامة . وهكذا بدت الجماعة الاسلامية منقسمة على نفسها انقساما خطيرا ولما يمض على وفاة النبى سوى ربع قرن . هال ذلك بعض الرجال المتحمسين من حزب الخوارج ، فظنوا أن القضاء على زعماء الاحزاب يقضى على الاحزاب نفسها ويقضى بالتالى على الانقسام ويعيد الى الامة وحدتها ، وصمموا على اغتيال على ومعاويه وعمرو فى ليلة واحدة (١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ) .

كان المتآمرون أخوة ثلاثة ، أسهم الزعيم منهم ـ عبد الرحمن بن ملجم في فتح مصر ، وأختط بالفسطاط ، وأتخذ لنفسه مسجدا بها ، وقد جمع بين التفوق العسكرى اذ كان فارس قومه المعدود فيهم ، والتفوق العلمى اذ كان من قراء القرآن وأهل الفقه ، قد قرأ القرآن على معاذ بن جبل باليمن ، حتى أن عمر بن الخطاب أمر أن يخصص له منزل بقرب المسجد ليعلم الناس القرآن ، ثم انتقل الى مذهب الخوارج مثله مثل كثير من القراء .

وفى الموعد المحدد توجه كل من المتآمرين الثلاثة ـ عبد الرحمن ، وقيس ويزيد ـ الى المسجد الجامع ليفتك بصحبه فى صلاة الفجر . وتدخل القدر بالنسبة الى عمرو اذ عرض له عارض منعه من الخروج الى الصلاة ، فأناب عنه صاحب شرطه ـ وكان يستخلفه عادة كلما تغيب ـ خارجة بن حذافة الصحابى الذى كان

يعد بألف فارس حتى أن عمر جعل عطاءه فى مائتين تقديرا لشجاعته والذى تزوج من امرأة قبطية من سبى سلطيس وأنجب منها ، والذى كان أحد زعماء العثمانيين فى مصر ، والذى ظل يخدم عمرو بن العاص منذ معارك الفتح حتى تلقى الطعنة القاتلة بدلا منه فى تلك الليلة الموعودة .

قبض المصلون على القاتل يزيد بن ملجم ، ودخلوا به على عمرو ، فلم يحاول انكار هدفه الحقيقى اذ قال لعمرو "أنا والله ما أردت غيرك ياعمرو" وأجاب عمرو المحظوظ فى هدوء وسخرية : "ولكن الله أراد خارجة" وظل عمرو ثلاث سنوات كاملات بعد ذلك يتمتع بالحياة والمجد والسلطان حتى أدركته منيته فى فراشه ليله عيد الفطر سنة ٤٣ هـ وهو الذى ظل طول عمره يتعامل مع الموت وجها لوجه ويقول : "ما كنت بشىء أتجر منى بالحرب" .

٣ - أحذروا أبا سليمان

أضطر الخليفة الوليد بن عبد الملك الى أن يعزل أخاه عبد الله عن مصر سنة ٩٠ هـ بعد أن حكمها أربع سنوات لم ينجح فى خلالها الا فى اثارة سخط الرأى العام عليه وكراهية الشعب له نتيجة ارتشائه ، وانصرافه الى الملذات ، واشتد الغلاء فى أيامه حتى هجاه شعراء مصر وسخروا منه سخرية قاسية .

وكان الطبيعى أن يبدله الخليفة بوال كفء يصلح ما أفسد سلفه غير أن الوليد زاد الطين بلة - كما يقال - حين أرسل قرة بن شريك ليحكم مصر اربع سنوات كاملة ، كل ما فعل فيها من اصلاح أنه "دون الديوان الثالث" أى أعاد كتابة اسماء الجند ومرتباتهم فى السجلات الخاصة بذلك للمرة الثالثة منذ الفتح تمشيا مع ما طرأ من تغيرات ، وأنه زاد فى المسجد الجامع ، وزوقه ، وذهب رؤوس بعض أعمدته ، وأصلح قبلته ، وجعل محرابه مجوفا ، ونصب فيه منبرا جديدا لم يلبث حتى أصبح أقدم منبر فى العالم الاسلامى بعد منبر النبى نفسه .

فيما عدا ذلك يقول عنه التاريخ :

كان خليعا ، من أظلم خلق الله ، سيىء التدبير ، ظالما غشوما ، فاسقا متهتكا . قيل أنه كان اذا أنصرف الصناع من بناء المسجد دخل المسجد ودعا بالخمر والطبل والمزمار فيشرب ويقول : « لنا الليل ولهم النهار » . وأنزل بلايا عظيمة على أصحاب عبد الله . والنصارى والمسلمون طرحهم فى السجون ، أقاموا فيها سنة . ولما ذهب اليه البطرك يهنئه بالولاية وفقا للتقاليد المتبعة طالبه بمبلغ كالذى دفعه لعبد الله بن عبد الملك "ولو أنه يبيع لحمه" وأنتهى به الامر الى أن أغلق مقر البطريركية وأخذ كل ما فيه من الاوانى والذهب والفضه والكتب والبهائم ، وكان كل أرخن (رئيس) يموت يأخذ جميع ماله ، حتى الاساقفة أخذ ميراث الجميع . وزاد على البلاد مائة الف دينار سوى خراجها المعروف . وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه . وكان عمر بن العزيز يعتب على الوليد لتوليته . وقد قال عمر يوما : "الحجاج بالعراق والوليد بالشام ، وقره بن شريك بمصر وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكه ! ! . اللهم قد أمتلأت الدنيا ظلما وجورا فأرح الناس" .

ضاق الناس صدرا بالظلم الموصول ، والعذاب الطويل . ولم يكن بد من حل .

خرج قره ، بعد عام من توليه مصر الى الاسكندرية يزورها ، ويطلع على مجالى الحسن فيها . ويستمتع بجوها القريب من جو دمشق . وكان فى الاسكندرية فرع قوى لحزب الخوارج ، يضم حوالى مائة من الرجال الاشداء ، يتزعمهم المهاجر بن أبى المثنى أحد أفراد قبيلة تجيب ذات النفوذ والثراء والسلطان . ووجدها الخوارج ـ وكانوا يعبرون عن ارادة الجماهير ، ويمثلون المعارضة الشعبية ـ فرصة سانحة فها هو ذا الحاكم الطاغية ، العابث بمقدرات الناس ، الذى يتخذ الحكم مركبا الى أرضاء نزواته ، قد سعى اليهم بقدميه ، وهو فى الاسكندرية بعيد عن العاصمة وسلطتها المركزية القوية ، وهم أدرى بمدينتهم ، ويستطيعون أن

يتحينوا الفرصة المناسبة زمانا ومكانا للانقضاض عليه ووضع حد لحكمه الاستغلالى الماجن البشع ، ويتفرق دمه عليهم فيضيع فيما بينهم ، ويكون دمه فى الوقت نفسه خير قربان يتقربون بسفكه الى الله .

اجتمع الرجال الفدائيون عند منارة الاسكندرية ـ وكانت ماتزال قائمة ـ فتداولوا الرآى ، ورسموا خطتهم ، وبايعوا زعيمهم ابن آبى المثنى وألقوا اليه قيادة تنفيذ الخطة .

لاشك فى أنهم قد غلبهم الحماس وهم يتناقشون فلم ينتبهوا الى ذلك الرجل القابع غير بعيد ، يبدو غير ملق بالا الى المناقشات الحامية الدائرة والخطط التى ترسم والبيعة التى تؤخذ . ونهض ابو سليمان ـ وكانت هذه كنيته ـ دون أن يثير انتباه آحد وآتجه مباشرة الى مقر الامير قره بن شريك فأفضى اليه بالامر كله .

لم يكن قره الرجل الذى يضيع وقته . فأرسل فى الحال قوة قبضت على المتآمرين وهم مايزالون منهمكين فى مجلسهم عند منارة الاسكندرية التى رسموا مؤامرتهم فى قاعدتها وآرسل فى طلب رجال الدولة الموجودين بالمدينة ، فلما أجتمعوا جلس يحقق مع المتآمرين فى حضرتهم سآلهم قرد عما بلغه ، ولما لم يكن الخوارج ليكذبوا أو يجبنوا أو يتراجعوا فقد اعترفوا آعترافا صريحا لاشك فيه . ولما كان الاعتراف سيد الادلة فقد رآى قره ، الذى لايبالى شيئا ، فيه حجة كافية ليصدر عليهم جميعا الحكم بالاعدام .

فشلت المؤامرة ، ونجا الامير المكروه ودفع الشعب الثمن غاليا ـ مائـة من آشجع الرجال المتمرسين على القتال الجاهرين بالحق ـ وضاعت فرصة ذهبية للخلاص .

وكان رجل من الخوارج لم تتناوله المذبحة الرهيبة لسـبب أو لآخر ، وكان قلبه ينفطر حزنا على رفاقه فى المذهب وصدره يغلى حقدا على الحاكم المفترس ، وضميره يثقله شعور بالعار لا يخلصه منه الا الانتقام . وكان قره نفسه أقل ثمن يمكن آن يرضى به فى

مقابل رفاقه المائة ، ولكن دون ذلك أهوال فأضطر أن يكف من غلوائه ويقنع بأبى سليمان الذى باع نفسه للشيطان ، وخان الشعور العام وانضم الى عدو الشعب ، ولم يجد الخوارج صعوبة فى الفتك بأبى سليمان . وشىء خير من لاشىء .

وذهب أبو سليمان مثلا فى التجسس على الشعب لحساب الحاكم . فكان يزيد بن ابى حبيب ، فقيه مصر العظيم (ت ١٢٨ هـ) ، اذا أراد أن يتكلم بشىء فيه نقد للحاكم تلفت حواليه وقال ساخرا : "احذروا أبا سليمان" . ولما كانت جراثيم التجسس وخيانة الشعب تجد مرتعا خصبا فى حمأة الاستبداد الطاغى فقد كثر من سلك مسلك أبى سليمان فى المجتمع المصرى حينذاك وتفاقم عدد المشتغلين بالتجسس طلبا للامان من الحكم الغاشم بالمعاونة عليه والمشاركة فيه ، ولحظ يزيد بن ابى حبيب هذه الظاهرة الكريهة التى أدت الى ضياع الثقة بين الناس حتى لم تعد حاجة الى التحذير من واحد بعينه ، فقال يوما من ذاك : "الناس كلهم أبو سليمان" . .

أما قره نفسه فقد اتخذ من الجماجم المائة كرسيا تربع عليه ، وظل يستمتع من فوقه بالحياة والسلطان ويمارس العربده والاستبداد حتى مات عام ٩٦ هـ ودفن فى رمال المقطم التى طالما ضمت الخالدين .

٤ - اين صلاتك ياوهيب ؟

فى سنة ١٠٤ هـ قام اسامة بن زيد صاحب الخراج بمصر - وكان يلجأ الى اعنف الاساليب لاستخراج أكبر قدر ممكن من المال ارضاء لسيده فى دمشق - بمهاجمة الاديرة وهدم الكنائس . فلما قام هشام فى الخلافة سنة ١٠٥ هـ كتب اليه بأن يجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد . ولذلك وصف مؤرخو القبط هشاما بأنه "كان رجلا خائفا من الله على طريق الاسلام ، وكان محبا لسائر الناس ويخلص الارتدكسيين" .

"وكان عنده رجل مسلم يحب البيع الارتدكسيه ، فلما نظره الملك هشام يفعل ذلك فرح جدا ، وولاه مصر واوصاه أن يفعل الخير مع بنى المعموديه" .

"وهكذا كانت أمور الابسقوبية - الاسقفية - والبيعة الارتدكسيه نامية مستقيمة حتى عادت الى ما كانت عليه أولا وآكثر ، الى أن صارت كأنها لم تنهب اولا . وبنعمة السيد المسيح كانت البيعة تنمو بغير مقاوم لها ، ولاشقاق فيها" .

وانتهز النصارى فرصة العهد المتسامح - وكانت لاتعرض الا نادراً ليحلوا ما أمكن من مشكلاتهم التى كان منها أن نساءهم وأولادهم كانوا فى ذهابهم الى الكنائس الداخلة بالفسطاط وعودتهم منها لايأمنون من معترض يعترضهم ، وخاصة فى ليالى صوم الاربعين ، اذ لم يكن لهم بد من اختراق الاحياء الاسلامية الخالصة فشكوا ذلك الى الوليد بن رفاعه والى مصر حينذاك وسألوه - كحل للاشكال - أن يأذن لهم فى اعادة بناء كنيسة أبى مينا الموجودة فى حى الحمراء الذى يقع خارج الفسطاط .

وتمشيا مع موقف الخليفة المتسامح من الذميين آذن الوليد لهم . وكان ذلك عام ١١٧ هـ .

لم يكد الخبر يعرف حتى ثارت ثائرة الرآى العام ظنا بأن فى ذلك خروجا على تعاليم الدين ، وتساهلا غير مشروع ازاء الاديان المخالفة للدين الرسمي ذى السيادة . وكان الخوارج - شأنهم دائما - لسان الرآى العام ، ومظهر ارادته ، وأداة تنفيذ هذه الارادة . وتصادف أن كان فى الفسطاط فى ذلك الوقت خارجى يدعى (وهيب اليحصبى) قد قدم من اليمن موطنه الاصلى منذ قليل ونزل على قبيلة يحصب القوية المقيمة بالفسطاط منذ الفتح ولما كان وهيب مايزال قريب عهد بالبداوة وعنفها وتمردها الى جانب المبادىء المتطرفة التى يعتنقها ، فما ترامى الخبر الى سمعه حتى استشاط غضبا وأعلن خروجه على الوالي الذى خرج

بدوره على الاسلام خروجا يوجب آن يدفع حياته نفسها ثمنا له .

وكانت خطة وهيب لاغتيال الوالى بسيطة وجريئة فى نفس الوقت كما هى خطط الفدائيين دائما . فقد راح يتعقب الوالى فى غدوه ورواحه يتحين فرصة مناسبة لينقض عليه ويفتك به . ولكن حراس الوالى سرعان ماكشفوا آمره ، فآخذوه وقتلوه .

كان فشل وهيب زيتا صب على النار المشتعلة ، وآحدث رد فعل عنيفاً فى آوساط القراء ـ حملة القرآن الذين نبت الخوارج آصلا فى بيئتهم ، وأفرخوا بين أحضانهم ، وورثوا عنهم ميلهم الى المعارضة العنيفة ـ فتجمعوا فى جزيرة الفسطاط التى بين الجسرين ـ جزيرة الروضة حاليا ـ بزعامة شريح بن صفوان التجيبى والدحيوه بن شريح الفقيه المشهور ، وآعلنوا الثورة على الامير الذى قتل زميلهم . وخشى الوليد ان تندلع نار الفتنة ويتسع نطاقها فبادر بارسال قوات الدولة الى القراء الثائرين فى الجزيرة الصغيرة حيث دارت معارك دامت أياما كانت معونة امرآة . وهيب الشارى ، تطوف فى خلالها ليلا على منازل القراء تحرضهم على الطلب بدم زوجها المطلول .

لم يكتف الوليد بقتل وهيب بل أراد آن يشرك قبيلته فى جرمه فقبض على مروان بن عبد الرحمن عريف قبيلة يحصب فى مصر وعدد من رجالها ووجه اليهم تهمة التواطؤ مع وهيب على اغتياله . نفى مروان الاتهام ، وآنكر معرفتهم بميول وهيب السياسية . ووصف وهيباً بآنه طارىء نزل عليهم لاعلم لهم به وليس من العدل آخذهم بجريرته ، قال : انما هو داف دف علينا لاعلم لنا به ، وقد كان ابليس مع الملائكة فعصى فلم يؤاخذهم الله بمعصيته) . ولم يعجب الوليد بالحجة الذكية فحسب وانما اقتنع بها كذلك فخلى سبيل مروان وآصحابه .

ولم يكن للقراء قبل بمقاومة قوات الدولة فلم يلبثوا حتى كفوا عن المعركة الخاسرة وتفرقوا .

وهكذا ضاعت مغامرة وهيب الفاشلة ، وظل الناس يضربون به فى أن الاجتهاد فى العبادة وحده لايكفى لتغيير الواقع ، بل يحدث أن يكون وبالا على صاحبه ، فيقولون : أين صلاتك ياوهيب ؟

٥ ـ الخراج دائما

فيما بين عامى ١٤٤ ـ ١٥٤ هـ كان محمد بن سعيد بن عقبه يلى خراج مصر من قبل أبى جعفر المنصور وكان ـ وفقا للنظام المتبع حينذاك ـ يعين على الكور ـ أى الاقاليم ـ موظفين من جهته يقومون بجمع الخراج منها . فحدث أن أستعمل على آتريب ـ كوره شرقى مصر عاصمتها عين شمس ـ موظفا يدعى ابن عتبه ، وكان عنيفا ، فأغلظ على أهل "أتريب" وأساء معاملتهم . وكان ينزل أتريب قوم من قبيلة مراد نالهم شىء من غلظة ابن عتبه ، فغضب لهم واحد من قبيلتهم يدعى ابن شجره وكان يعمل فى قوات الشرطة بالفسطاط . وبالرغم من آن المحافظة على أرواح الناس هى مهمته الاصلية بما هو احد رجال الامن ، فقد غلبته عقليته القبلية وصمم على اغتيال ابن عتبه انتقاما لأبناء قبيلته من جهه وليريح أهل اتريب من سخافاته من جهة أخرى .

وكانت خطة ابن شجرة بسيطة جدا اذ لم يفعل أكثر من أن امتطى جواده ووقف امام ديوان الشرطة ـ وليس فى ذلك ما يريب ـ ينتظر ان يمر به غريمه الذى لاشك فى أنه كان على علم بمواعيده . غير آنه قبل ذلك حرص ـ كجزء من الخطة ـ على آن يطلى سيفه مدادا حتى لايظهر بريقه وهو يسله فى الظلام .

وطال بأبن شجرة تربصه أو قصر ـ لاندرى ـ ولكن الليل كان قد اسدل ظلامه على طرقات الفسطاط المعتمة حين خرج ابن عتبه من ديوان الخراج راجعا الى منزله ممتطيا جواده . وهمز ابن شجره فرسه وانطلق يظنه من يراه ذاهبا للمرور . وما هى الا خطوات حتى أدرك غريمه فجرد سيفه الاسود فى الظلام وآهوى به على رأسه .

وترنح ابن عتبه من أثر الضربة وسقط من فوق جواده وقد سبقته قلنسوته تتدحرج على الأرض . ربما كانت المفاجأه أفقدت ابن عتبه توازنه فسقط ، وربما كان هو قد القى بنفسه ليوهم عدوه أنه اصيب . وأيا كان الامر فان ابن شجره لما رأى القلنسوه تتدحرج لم يشك لحظة في أنها رأس غريمه ، فاطمأن الى نجاح خطته وتحقق هدفه ، فركب جواده وأستدار حوله وعاد الى موقفه الاول من ديوان الشرطة . وأقبل الناس عل الضجة فوجدوا ابن عتبه ملقى لم يصبه شيء وقام وواصل السير الى منزله .

أولى محمد بن سعيد بن عقبة صاحب الخراج الحادث أهمية كبيرة فأرسل الى مرؤسه ابن عتبه يسأله عمن حاول اغتياله . ولما كان ابن عتبه يجهل الجانى ، ولكنه يعلم في نفس الوقت أن أهل أتريب يحقدون عليه معاملته القاسية لهم ، فقد القى التهمة على أهل أتريب كلهم وكان فيهم فقيه مصر العظيم الجليل الليث بن سعد . وبادر محمد بن سعيد فألقى القبض عليهم وحبسهم بما فيهم الامام الليث بالرغم من ارتفاعه عن الشبهات . وقد اهتز الامام اهتزازاً عنيفا ، مع أنهم سرعان ما خلوا سبيله ، وكان يقول : « أن هذا لشيء ما سألت الله العافية منه قط . انى متهم فى قتل نفس » .

كان طبيعيا الا يسفر التحقيق مع أهل اتريب عن شيء ، فقد نفى كل منهم التهمة عن نفسه نفيا باتا . ولم يجد محمد بن سعيد بدا من رفع الامر الى الخليفة في بغداد يخبره أن ابن عتبه يجهل من اعتدى عليه الا بالظنة ، ويسأله الرأى . فكتب الخليفة برأيه وأرسله الى قاضى مصر بما هو جهه الاختصاص . وتنفيذا لكتاب الخليفة أرسل القاضى الى المتهمين المحبوسين فأطلق سراحهم وحفظ القضية ضد مجهول .

لم يقنع محمد بن سعيد بهذه النتيجة ، وخشى أن تؤثر تأثيرا سيئا على سير عمله وعلى مركز الموظفين الذين يعاونونه ، فصمم

على عقاب اهل اتريب بصورة ما فمضى يبحث عن رجل « حازم " يوليه على خراج اتريب بدلا من ابن عتبه بما صنعوا . ولم يلبث حتى وفق الى رجل يدعى الخزرج بن صالح ! استطاع أن ينسى اهل اتريب سلفه فى سوء المعاملة والغلظة . وبلغ من وقاحته أن كان يخاطب الموظفين الذين يعملون معه بقوله :

"يابن الفاعلة ـ لايكنى ـ : والله لئن لم تجىء بكل اسم أخرجته اليك لافعلن بك ولافعلن" .

آما بن شجرة الفاعل الحقيقي فقد ظل يآسف على الفرصبة التى افلتت منه ويقول :

"لو علمت آن الذى سقط القلنسوة مازلت حتى أزيل رأسه"

شخصيات نسوية

عندما خطا الرجل المصـرى خطواته الأولى فوق أرض الوادى المباركة ، منذ آلاف السنين ، يروض النهر ، ويستأنس الحيوان ، ويتألف النبات ، ويقيم البيت ، ويغزل الثوب ، ويطهو الطعام ، لم يكن وحده ، فقد كان معه ـ جنبا الى جنب ، ويدا بيد ، وخطوة بخطوة ـ زميله الانسانى ، وشريكه الحيوى ، ونصفه الأحلى : المرأة ، المرأة المصرية ، تفتتح معه مرحلة جديدة رائعة فى حياة الجنس البشرى ، مرحلة الحياة المدنية التى تزرع وتصنع ، وتنتج وتتجر ، وتبني وتنحت ، وتحارب وتسالم ، وتتعبد وتتدين ، وتبحث وتفكر ، وتكتب وتقرأ ، وتشرع وتقنن ، وتتأدب وتتفنن .. الى آخر كل الاساليب الحضارية التى لم تزل توجد وتنمو وتتقدم منذ بدأها الانسان المصرى هناك حينذاك .

والآثار التاريخية سواء كانت صورا مرسومة ، أو نقوشا محفورة ، أو تماثيل منحوتة ، أو كتابة مدونة ، أو أخبارا مروية تشهد جميعا بأن المرأة المصـرية مازالت منذ اضطلعت بدورها فى قصة الحياة تقوم به حتى اللحظة ، لم تعتزل ، ولم تختف ، ولم تنسحب . كما تشهد هذه الاثار نفسها بأن هذه المرأة الخالدة قد لعبت دورها فى كل مكان : فى البيت زوجة وأما ، وفى الحقل فلاحة ، وفى السوق تاجرة ، وفى الفن مغنية وراقصة ، وعلى العرش ملكة ، وفى الأساطير إلاهة .

* * *

لما فتح العرب مصر ٢٠ هـ ، وأقاموا بها الحكم الاسلامى ، أصبح المجتمع المصرى ـ مثله مثل سائر المجتمعات الاسلامية ـ يتكون من أربع طبقات . ففي قاعدة الهرم الاجتماعى يوجد الرقيق

اسرى الحروب والمشترون بالمال . أما الذميون ، أهل الكتاب المسيحيون واليهود ، الذين آثروا أن يحتفظوا بدينهم فى مقابل أداء ضريبة معينة هى الجزية ، فقد كانوا يشكلون الطبقة التالية التى تعلو طبقة الرقيق . وكثيرا ما كان يحدث أن يعتق الرقيق فيصبح حرا ، وأن يتحول الذمى عن دينه الى الاسلام ، وكان هؤلاء حينئذ يطلق عليهم اسم : ألموالى ، ويكونون طبقة أرقى فى المجتمع . أما الطبقة العليا التى تتربع على قمة الهرم الاجتماعى فتتكون من العرب الفاتحين .

* * *

أولا : من الرقيق

١ - الجارية الجدعاء :

اذا كان الاسلام قد أعترف بالرق من جهة ، فانه من جهة أخرى قد دعا الى حسن معاملة الرقيق ، مثلما فتح الباب امامهم على مصراعيه لينالوا الحرية . وليس هنا مجال مناقشة هذا الموضوع الهام . ولكننا نقابل فى مصر مثلا رائعا .

قبيلة حمير قبيلة عربية - يمنية على وجه التحديد - كبيرة . أشتركت فى فتح مصر ، ذات نفوذ ادبى ومادى وعسكرى كبير . وكان طبيعيا جدا أن يملك أفرادها العبيد من الرجال والاماء من النساء . وحدث يوما - وهو ما يحدث كل يوم - أن أتت احدى الاماء ما يستوجب العقاب . ولكن سيدتها الحميرية لما عاقبتها تجاوزت الحد فقد "جدعتها" أى قطعت أنفها . ولما كان ذلك اعتداء جسيما على الامة فقد سارعت الى عبد الرحمن بن حجيرة القاضى العربى العظيم الذى ولى قضاء مصر من ٦٩ - ٨٣ هـ ، تشكو اليه سيدتها . وقدر القاضى المنصف فداحة الضرر الذى لحق بالامة نتيجة للعاهة المستديمة التى اصابتها ، وماترتب على ذلك من تشويه بليغ لها بما هى انثى يشكل المظهر الخارجى عنصرا هاما من شخصيتها . كما قدر فى الوقت نفسه وحشية العقاب . لذا لم يكن التعويض الذى قضى به للأمة سوى الحرية نفسها ، فقد

أعتقها . ليس هذا فحسب ، فقد حرص القاضى اليقظ على أن يكفل للأمة حياتها المادية فقضى بولائها للمسلمين يعقلون عنها ويربونها : أى أنه رفعها من طبقة الرقيق الى طبقة الموالى ، وجعل ولاءها فى يد الدولة نفسها تتولى الانفاق عليها وتتحمل المسئولية عنها .

٢ ـ الجارية الأديبة :

معلى بن ألعلى الطائى ، أو المعلى الطائى على وجه الاختصار ، شاعر لمعت شخصيته فى مصر فيما بين عامى ١٩٤ ـ ٢١٤ هـ . وفى هذه الفترة التى سادها الاضطراب العنيف عاش هذا الشاعر غارقا فى السياسة حتى اذنيه ، يتصل برجالها فيمدحهم أو يذمهم أو يرثيهم أو يسخر منهم وفق الظروف ، ولكنه يكسب فى خلال ذلك كله أموالا كثيرة ينفقها على بناته أللاتى قال فيهن ابياته المشهورة :

لولا بنيات كزغب ألقطا
حططن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع
في الأرض ذات الطول والعرض
وأنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
أن هبت الريح على بعضهم
لم تشبع العين من الغمض

وكان للمعلى جارية أسمها "وصف" لعله ظفر بها جائزة على احدى مدائحه ولعلها اهديت اليه اهداء ، ولعله ـ وهذا مستبعد جدا ـ قد أشتراها . وأيا كان الأمر فان وصفا كانت جارية غير عادية اذ كانت "أديبة شاعرة" ولم يكن من ألنادر أن تكون الجارية أديبة شاعرة ، فان ذلك كان يرفع من ثمنها فى السوق مثلما يرفع من مكانتها عند سيدها . ونستطيع أن نتوقع أن الجارية كانت

سعيدة بسيدها الأديب الشاعر ، وأن الشاعر كان سعيدا بجاريته الاديبة الشاعرة لاسيما اذا عرفنا ان وصفا جمعت الى ذلك الامتياز الفنى الثقافى امتيازا حسيا شكليا فقد كانت شابة ، غانية، ريا العظام، سوداء الشعر غزيرته ، عيناها واسعتان وطفاوان فيهما من الحنان والرعاية مافى عينى الظبية التى ترعى طفلها .

ولكن المعلى الطائى كان ـ ربما بسبب أعبائه العائلية ـ شديد الحب للمال أو شديد الحاجة اليه . لذلك لم يتردد فى أن يتخلى عن جاريته الثمينة عندما عرض عليه ذات يوم أربعة آلاف دينار ـ أى ألفان من ألجنيهات فى ذلك الزمن السحيق ـ ثمنا لها . وعلمت الجارية بما ابرمه سيدها فى أمرها . فلما عاد سعيدا بصفقته الرابحة سألته تستوثق من الخبر : بعتنى يامعلى ؟ قال الشاعر الذى نسى وجدانه فتحول الى نخاس : نعم . افاقت وصف من وهمها الكبير على واقعها التعس الذليل الذى طالما خدعت نفسها عنه . هى أذن ليست أديبة ولا شاعرة ، والمعلى ليس أستاذها ولا زميلها . ليست سوى جارية والمعلى سيدها . وليس الفن هو ما يجمع بينهما ، ولكن الاستعباد . وما تحمل فى قلبها نحو سيدها لا يقابله من جهته شىء . ليست فنانة ولا حتى أنسانة . ماهى الا سلعة .. متاع .. شىء .

نظرت وصف الى سيدها وفى عينيها الجميلتين كل العتب ، وكل الألم ، وكل خيبة الأمل ، وكل الفجيعة وقالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها .

هناك ثاب الشاعر الى نفسه ، واسترد وجدانه ، وانتبه على الخطيئة البشعة التى أقترفها فى حق زميلته فى الفن ، وأدرك أن الصلة الروحية أثمن من المال ولو كان آلافا مؤلفة من الدنانير . فهم السيد الدرس الانسانى العميق الذى لقنته أياه جاريته ، فجرى الى صاحبه ، ورجع عن البيع ، ورد اليه الدنانير . لكن كان الوقت قد فات. فإن وصفا الاديبة الشاعرة ، الانسانة الفنانة ، لم تستطع ان تبرأ من الصدمة الرهيبة التى حطمت اعصابها ،

وسحقت كبرياءها ، وخلعت عنها ثقتها فى نفسها ، وسلبتها ايمانها بحقها فى البقاء ، فماتت بعد ثمانية ايام . وهكذا خسر الشاعر ، فى لحظة من لحظات الانانية والتنكر للرسالة ، خسارتين ، وأصيب مصيبتين . وأهتز فيه وجدان الفنان الاصيل فرثى صاحبته الراحلة فى قصيدة جميلة منها :

ياموت : كيف سلبتنى وصفا ؟
قدمتها وتركتنى خلفا
هلا ذهبت بنا معا ؟ فلقد
ظفرت يداك فسمتنى خسفا
وأخذت شق النفس من بدنى
فقبرته وتركت لى النصفا
فعليك بالباقى بلا أجل
فالموت بعد وفاتها أعفى

* * *

ثانيا : من أهل الذمة

ما آن دخل العرب مصر حتى تم الاتصال بينهم وبين السكان الوطنيين ـ المصريين ـ منذ اللحظات الأولى . واتخذ هذا الاتصال صورا مختلفة منها المصاهرة . فقد تزوج الصحابى يزيد بن عبد الله بن الجراح ، احد رجال الفتح وأخو الصحابى الشهير أبى عبيدة بن الجراح ، من مصرية مسيحية .

وفى عام (٢٥ هـ) هاجم البيزنطيون الاسكندرية ، وأحتلوها من جديد ، وساروا منها الى الفسطاط . وأنتهزت بعض العناصر القبطية الموقف فأنضمت اليهم ، وأعلنت التمرد على الحكم العربى فى عدد من قرى شمال الدلتا من بينها قرية سلطيس . ولكن العرب لم يلبثوا حتى قمعوا ذلك التمرد ، وطردوا البيزنطيين ، وطهروا الاسكندرية تطهيرا ، كما اسروا وسبوا عددا هائلا من أهل القرى المتمردة . واتخذ بعض القادة العرب زوجات من سبايا سلطيس بالذات .

فهناك خارجة بن حذافة الصحابى أحد قواد المدد الى عمرو بن العاص فى معارك الفتح ، والذى ظل على شرطة عمرو حتى اغتيل خطأ بدلا منه فى المؤامرة الثلاثية التى دبرت عام ٤٠ هـ لاغتيال عمرو وعلى ومعاوية ، وكان أغتياله على هذه الصورة منشأ المثل الشهير : "أردت عمرا وأراد الله خارجة" خارجة هذا تزوج سيدة مصرية من سلطيس وأنجب منها ولده عونا .

أما معاوية بن حديج (ت ٥٢ هـ) ، السيد العربى الكبير الذى لعب اخطر الادوار فى مصر فى عصر الفتح ، فتزعم حركة الانتقام لعثمان ، وأسهم فى انتزاع مصر من سلطان على ونقلها الى سلطان معاوية بن أبى سفيان سنة ٣٨ هـ ... معاوية بن حديج هذا تزوج إحدى سبايا سلطيس ، وأنجب منها ابنه عبد الرحمن (ت ٩٩ هـ) الذى ولى قضاء مصر وشرطها .

١ - فبرونيا ، الراهبة الحسناء :

عندما دخل الصراع بين الامويين والعباسيين مرحلته النهائية عام ١٣٢ هـ فر الخليفة الاموى الاخير ، مروان بن محمد ، الى مصر حيث خاض معركته الأخيرة التى خسر فيها ملكه وحياته فى قرية بوصير قوريدس ، بوصير الملق الحالية .

وفيما كانت فلول الأمويين اليائسة تنطلق هاربة في أعماق الصعيد يطاردهم العباسيون المنتصرون ، هاجموا أحد الديارات فى مدينة اخميم ، فوجدوا فيه راهبة على جانب كبير من الجمال . ووجد الفرسان الذين تشدهم الى الحياة أوهى الخيوط فرصة ليختلفوا على ملكية فبرونيا الراهبة الحسناء التى صممت على ألا يفوز بها الا الموت . فلم تلبث حتى قطعت عليهم جدلهم لتخبرهم أنها تملك ما هو أهم من جسدها الجميل بالنسبة اليهم كمحاربين منهزمين توشك فرصتهم فى الحياة أن تنطفىء . زيت عجيب تليت عليه العزائم ، وباركه الآباء ، من يدهن به جسده لم تؤثر فيه السيوف .

رحب الفرسان بالنبأ ، وانصرفوا عن جدلهم ، ووجهوا اهتمامهم الى هذه المفاجأة التى انعشت آمالهم فى البقاء . لكن شيئا من الشك ساورهم ، فطلبوا اليها أن يجربوه ، وأن تكون هى نفسها موضع التجربة . لم تتردد فبرونيا لحظة واحدة ، فدهنت عنقها بالزيت ومدته لهم فـــى اطمئنان الواثق من النتيجة . وبيد لاعمل لها الا القتال امتشق احد الفرسان سيفه وضرب عنق الراهبة . وعندما طار الرأس عن الجسد ادرك الفزسان ان اسيرتهم آثرت الموت على الاستسلام .

٣ - الاقطاعية القبطية :

لما دخل القرن الثالث الهجرى كان العرب قد اختلطوا بالمصريين ، وسكنوا الريف ، وملكوا الأرض ، وأشتغلوا بالزراعة . وكانت الدولة فى الوقت نفسه قد أزدادت عسفا ، وأرهقت الناس - والزراع منهم بخاصة - بالضرائب . وأصبح العرب والفلاحون المصريون تجمع بينهم مصلحة اقتصادية واحدة . فلما زادت عليهم وطأة الضرائب نتيجة لتلاعب موظفى الدولة ، وفساد ذممهم ، وسوء أدارتهم اشتركوا معا فى اشعال ثورة دامية شملت الدلتا كلها عام ٢١٧ هـ . ولما عجزت قوات الدولة عن أخماد ثورة الشعب أضطر الخليفة - وكان المأمون حينذاك - الى أن يحضر الى مصر بنفسه حيث وقف على السبب الحقيقي للثورة . وبعد أن أعاد الخليفة الهدوء الى البلاد مضى يتجول فى أرجاء مصر . قال المقريزى : فكان يبنى له فى القرية التى ينزلها دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله . وكان يقيم فى القرية يوما وليلة . فمر بقرية يقال لها "طاء النمل" فلم يدخلها لحقارتها . فلما تجاوزها خرجت اليه عجوز تعرف بمارية القبطية ، صاحبة القرية ، وهى تصيح . فظنها المأمون مستغيثة متظلمة ، فوقف لها . وكان لا يمشى ابدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس ، فذكروا له أن القبطية قالت :

يا أمير المؤمنين : نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى ، والقبط تعيرنى بذلك . وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف ولعقبى ، ولا تشمت الاعداء بى .

وبكت بكاء كثيرا ، فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه اليها ونزل . فجاء ولدها الى صاحب المطبخ وسأله : كم تحتاج من الغنم ، والدجاج ، والفراخ ، والسمك ، والتوابل ، والسكر ، والعسل ، والطيب ، والشمع ، والفاكهة ، والعلوفة ؟ وغير ذلك مما جرت به عادته . فأحضر جميع ذلك اليه بزيادة .

وكان مع المأمون أخوه المعتصم ، وأبنه العباس ، وأولاد أخيه والمتوكل ، ويحيى بن آكثم ، والقاضى احمد بن أبى دؤاد ، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على أنفراد ، ولم تكل احدا منهم ولا من القواد الى غيره .

ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا حتى أنه أستعظم ذلك . فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت اليه ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق . فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر :

قد جاءتكم القبطية بهدية الريف : الكامخ ، والصحناه ، والصبر .

فلما وضعت ذلك بين يديه اذا فى كل طبق كيس من ذهب . فأستحسن ذلك وأمرها بأعادته .

فقالت : لا والله ، لاأفعل . فتأمل الذهب فاذا به من ضرب عام واحد كله ، فقال :

هذا والله أعجب . ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك .

فقالت : ياأمير المؤمنين : لاتكسر قلوبنا ، ولا تحقر بنا .

فقال : أن فى بعض ما صنعت كفاية ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك .

فأخذت قطعة من الارض وقالت :

ياأمير المؤمنين : هذا ـ وأشارت الى الذهب ـ من هذا ـ

وأشارت الى الطينة التى تناولتها من الأرض - ثم من عدلك ياأمين المؤمنين . وعندى من هذا شىء كثير .

فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدان بغير خراج ، وأنصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة مالها .

* * *

ثالثا : من الموالى

على الرغم من أن المجتمع الاسلامى مجتمع طبقى يمكن أن نميز فيه طبقات مختلفة تتفاوت تفاوتا حادا من حيث مستوى المعيشة ودرجة الثقافة .فهو مجتمع مفتوح يفسح المجال لحركة التغير الاجتماعى الى أعلى والى أسفل بحيث يستطيع أى فرد فيه أن يصعد من قاعدة الهرم الاجتماعى الى قمته عن طريق التفوق الثقافى أو المادى أو العسكرى . والعكس صحيح .

وبفضل ظاهرة الحراك الاجتماعى هذه بلغ العبيد الارقاء ، فى المجتمع الاسلامى ، أرقـى المستويات العلمية ، وشغلوا مناصب الحكم العليا ، وقادوا الجيوش ، وجمعوا ثروات خيالية .

وفى مصر تزوج عبد العزيز بن مروان ، مؤسس حلوان ، والذى حكم مصر كأنه خليفة (٦٥ هـ - ٨٦ هـ) ، من يونانية أسمها مارية ، ورفعها الى طبقته الارستقراطية ، وبنى لها قصرا بأسمها ، وأنجب منها أبنه محمدا . مثلما تزوج ابن حجيرة الاصغر ، العربى الأصيل ، والذى كان يشغل منصب القضاء الجليل فى مصر فى اخريات القرن الأول من مولاة .

لكن لعل خير نموذج لنساء هذه الطبقة هى "نعم" أم ولد دحية ابن مصعب :

- المرأة الدحاربة :

بالرغم من عمليات الابادة الرهيبة التى قام بها العباسيون بالنسبة للأمويين فى مصر استطاع افراد منهم أن يفلتوا من

المطاردة الدموية ويتيهوا في جوف الصعيد حيث واصلوا حياتهم في صمت منتظرين الفرصة المواتية ليأخذوا بثأرهم . وفي عام ١٦٧ هـ لاحت الفرصة لدحية بن مصعب ، أحد أحفاد عبد العزيز بن مروان - وكان قابعا في بلدة اهناسيا يحلم بأمجاد الآباء الغابرين ، ويشجع اعمال التمرد من بعيد - فأعلن الثورة في الصعيد ، ودعا الى نفسه بالخلافة ، وجمع أموال الضرائب وأستولى عليها ، وبسط سلطانه على معظم الصعيد مفيدا من تراخي والى مصر عنه وعدم احتفاله بأمره . وبلغ من نجاح ذلك الثائر الأموى المطالب بدماء آبائه أن سكان العاصمة كاتبوه ودعوه الى دخول الفسطاط . واستطاع دحية أن يحافظ على نجاحه طوال عامين أنتهيا بأنتصار قوات الدولة عليه وفراره الى الواحات . وأنضم أهل الواحات - وكانوا خوارج - الى الثائر اللاجئ الى ديارهم في صراعه ضد الدولة . غير أنهم لم يلبثوا حتى تخلوا عنه عندما رأوا أنه يشذ عن مذهبهم في نقطتين خطيرتين :

فهو يفضل العرب على الموالى ، ثم أنه عثمانى يؤمن بأن الخليفة عثمان قتل مظلوما يطالب بدمه . عند ذاك كان لابد أن يهزم دحية ، ويؤسر ، ويساق الى الفسطاط حيث ضرب عنقه وصلب فى جمادى الآخرة ١٦٩ هـ .

بقى أن نقول ان دحية العربى كان له أم ولد ، أى زوجة غير عربية ، أسمها نعم . وقد عرفت نعم الهدف الكبير الذى نذر زوجها نفسه لبلوغه مثلما عرفت خطته اليه . وأمنت نعم بأهداف زوجها وخططه . وصممت على أن تقف معه . فلما جرد زوجها السيف ليشق الطريق الى هدفه نزلت الى أرض المعركة تتقدم الصفوف وتثير حماس الجنود ، وتقاتل قتالا صادقاً . وأنتزعت نعم أعجاب المقاتلين من زملائها الرجال ، فقال لها أحدهم :

فلا ترجعى يانعم عن جيش ظالم
يقود جيوش الظالمين ويجنب
وكرى بنا طردا على كل سابح

الينا منايا الكافـــرين يقـــرب
كيوم لنا ـ لازلت أذكـــر يومنـــا ـ
بفاو ، ويـــوم فى بـــويـــط عصبصب
ويـوم بأعلى الديــر كانت نحوســـه
على خيبة الفضل بن صالـــح تنعـــب

* * *

رابعا : من العرب

١ ـ أرملة الراحل الأول :

لما تم للعربى الاستيلاء على مصر اقام لنفسه على أرضها مسكنا خاصا به . ولا أهمية لذلك الاسم غير العربى ـ الفسطاط ـ الذى اطلقه على مسكنه هذا الذى بناه ليمارس منه حياته الجديدة فى ذلك المجال الحيوى الجديد . لكن المهم أنه وهو يعلم ان الموت احدى العمليات الحيوية التى لا يستغنى عن أدائها الاحياء ، اتخذ لنفسه مسكنا أخرويا شرقى الفسطاط ، عند سفح المقطم ، لم يلبث الاستعمال اليومى حتى خلع عليه اسم القبيلة اليمنية ـ بنى قرافة ـ التى كانت تختط هناك .

وليس بعيدا أن كل عربى كان يقدر أنه قد يكون أول من يحمل على الانتقال للأقامة فى تلك البقعة التى كان المقوقس ابدى استعداده لشرائها من المسلمين بسبعين الف دينار (!!) "لأنهم ـ أى أهل الكتاب ـ يجدون صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة" .

لم يطل الزمن فى كل حال حتى أختارت الحياة رجلا من قبيلة المعافر أسمه عامر لتفتتح به القرافة التى لم تتوقف منذ ذلك عن استقبال النزلاء من أهل مصر والقاهرة .

دوى الخبر بين القبائل واضعا حدا للتوقع القلق . وسجل القوم الحادثة التاريخية فى تعليق يجمع بين السخرية والتسليم قائلين :
(عمرت !) .

بيد أن أمرأة ما كان للحادث لديها وقع جد مختلف . فقد كان عامر هذا رجلها الذى يهيىء لحياتها أن تدور دورة كاملة وتتجسم فيه معالم الوطن الأول ، ويسرى عنها اشواق الغربة وكآبتها ، وتلقى رجولته على وجودها ظل العز والأمان .

ولذا كان لها على الحادث تعليق جد مختلف كذلك : فلم يكن الأمر بالنسبة اليها امر أفتتاح مدافن العرب العامة . وأنما كان الامر أنثى تنظر فى هلع الى ثلاثة أشباح رهيبة : الوحدة ، والغربة ، والذل ، تزحف عليها لتدمر حياتها بعد أن تحطم الحصن الذى كان يحوطها .

وقفت المرأة العربية التى يلذع الحزن قلبها ، وتحرك اللوعة لسانها ، تندب نفسها :

قامــــت بواكــيه علـــى قـــبره
مــن لـــــى من بعدك ياعامـــر ؟
تركتنى فـــــى الـــدار ذا غربـــة
قـــد ذل مـــن ليـس لـه ناصــــر

٢ ـ إمرأة وثلاثة رجال :

علقمة بن يزيد الغطيفى أحد الرجال الذى تعاونت سيوفهم على فتح مصر .

لم يكن رجلا عاديا تماما فقد كانت له وفادة ، أى أنه وفد على النبى ، وفى مصر عاش محاربا ممتازا .

أما عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، أخو عثمان بن عفاف من الرضاع ، فكان يتولى قيادة ميمنة جيش الفتح لعمرو بن العاص . ولما تم الفتح استطاع أن يحقق لنفسه نجاحا جعل منه منافسا فعليا لعمرو . فقد قاسمه إمرة مصر : هو على الصعيد وعمرو على أسفل الأرض (الدلتا) . ثم لم يلبث حتى انفرد بحكم مصر كلها سنة ٢٥ هـ . ثم خاض معارك ضخمة مظفرة مع افريقية الرومانية سنة ٢٧ هـ ، ومع اساودة النوبة سنة ٣١ هـ . وكانت الغنائم من اسباب نجاحه فى تكوين ثروة ضخمة لنفسه جلبت عليه حقد

. ـاقدين .

ـجع بنا الحديث الى علقمــــة .

ـلقمة اراد أن يتزوج . ويبدو أنه يحمل اعجابا خاصا بفتاة اسمها بسيسة فلـــــم يتردد بل ذهب فخطبها الى ابيها حمزة بن ليشرح الذى لم يمانع .

لكن يبدو كذلك أن بسيسة كانت تتمتع بما يحبب فيها عظماء الرجال . فقد علم بها عبد الله بن سعد ـ السيد القرشى ، والأمير الغنى ، والقائد المظفر ـ فأرادها لنفسه . وكان هناك الضابط الصغير علقمة . لكن الأمر لم يتطلب أكثر من أن يكلمه عبد الله . فإذا به يتنازل عنها .

أما لماذا وكيف تنازل علقمة الفارس عن فتاته فمسألة تحتمل الاجابة عنها كل الفروض . لعله تنازل كرما ، أو رهبة ، أو يأسا .

وبُسيسة ما موقفها ؟ لاشىء طبعا فهذه امور ينفرد ـ كان ـ بتقريرها الرجال .

ومرت الأيام . وأراد البيزنطيون أن يلقوا بكل قوتهم فى محاولة يائسة للقضاء على النظام الجديد فى مصر وأستعادتها من العرب . وقدموا الى المياه الاقليمية فى اسطول ضخم خاف المسلمون لما سمعوا أنه يتكون من الف مركب ، فقد كانوا لا يملكون سوى مائتى مركب أو نحوها . وقسم عبد الله قواته نصفين : نصف سيره على البر ، ونصف حمله معه فى البحر . ولما كانت التقاليد العسكرية حينذاك تسمح للجنوذ باصطحاب نسائهم معهم فى المراكب فى أثناء المعارك البحرية ، فقد كانت بسيسة فى سفينة عبد الله فى ذلك اليوم . على أنه كان هناك شخص آخر على نفس المركب : علقمة .

دارت معركة غير متكافئة بين قوم ذوى خبرة عريقة بالقتال فى البحر ، وآخرين مازالت رمال الصحراء عالقة بثيابهم ، وأقتتلوا أول الأمر بالنبل أو النشاب . فلما لم يؤد هذا الى شىء ذى بال تبادلوا الرمى بالحجارة الضخمة . لكن هذا لم يحسم الموقف كذلك

فربطوا المراكب بعضها ببعض بالسلاسل وجعلوا منها ارضا وقفوا يقتتلون فوقها بالسيوف ، وقرن مركب عبد الله بمركب من مراكب العدو ، فكاد مركب العدو يجتر مركب القائد العربى اليهم ، وتعرضت سفينة عبدالله لخطر لاشك فيه . وهنا قام علقمة الذى يعلم أن هناك عينا ترقب مايحدث فضرب السلسلة بسيفه ضربة محارب بطل فقطعها .

وأنتهت معركة "ذات الصوارى" التى مايزال اسمها العربى يعبر عن دهشة الجنود العرب البالغة ازاء ذلك العدد من صوارى مراكب الروم ، والتى تكافىء معركة اليرموك من حيث الأهمية ، والتى فيها دمر الاسطول البيزنطى تماما .

التفت القائد المنتصر الى زوجته بسيسة وسألها : من رأيت أشد قتالا ؟ أجابت المرأة العربية فى بساطة ونزاهة وشجاعة : علقمة صاحب السلسلة .

على أن لهذه المعركة وجها اخر من الأهمية لايعنى به المؤرخون . ففى أثنائها وبعدها مباشرة بدأت الحركة المضادة لعثمان فى مصر ، هذه الحركة التى حتمت على عبد الله بن سعد مغادرة البلاد متوجها الى العاصمة لمقابلة الخليفة سنة ٣٥ هـ . ولم يعد عبد الله الى مصر بعد ذلك مطلقا . بل أنه لم يلبث حتى مات في السنة التالية . وأصبحت بسيسة أرملة .

وكان هناك علقمة ، وكان مايزال على عهده . فذهب فخطبها من جديد . ولم يتدخل منافس فى هذه المرة فتم الزواج .

سار علقمة فى الاتجاه الأموى وأصبح من رجالات الدولة . وتقدم فى المناصب العسكرية حتى أسندت اليه قيادة حامية مدينة الاسكندرية . التى تتكون من ستة عشر ألف جندى .

ومرت الايام ، وتقدمت السن بعلقمة ، ولم يلبث حتى ذهب الى حيث سبقه عبد الله ، وعادت بسيسة الشابة فترملت من جديد . لكن هذا الشيء الذى يجعل بسيسة موضع تفضيل الرجال عاد

فأنقذها من وخشة الترمل . ولئن كانت بسيسة قد أستهوت أول الأمر سيدا اميرا . ثم جذبت اليها فى المرة الثانية قائدا كبيرا ، أنها اليوم ماتزال قادرة على أن تعجب زعيما خطيرا .

كريب بن أبرهة الاصبحى سيد من سادات حمير ، وشريف من أشراف مصر ، ونجم لامع من نجوم طبقة العرب الارستقراطية . كان يسير فى طرق الفسطاط وأن تحت ركابه خمسمائة رجل من حمير . وولى الأسكندرية لعبد العزيز بن مروان . ذلك هو الزوج الثالث لبسيسة .

عاشت بسيسة مع زوجها الجديد ما شاء الله لها ان تعيش حتى كانت سنة ٦٤ هـ فتمرد الخوارج المصريون متحالفين مع اتباع عبد الله بن الزبير ضد الحكم الاموى فى حركة انتهت بسقوط مصر فى ايديهم . غير أنهم لم يلبثوا حتى أضطروا بعد ستة أشهر ، وبعد معارك عنيفة ضد قوات الدولة تخللتها مساع حميدة لأشراف مصر الموالين للأمويين ومن بينهم كريب بن أبرهة ، الى تسليم مصر الى مروان بن الحكم الذى دخلها دخول الفاتحين . وكان أول ما فعله مروان ـ شأن كل قائد منتصر ـ أن قضى على كل خصومه الخطرين وفى مقدمتهم سيد قبيلة لخم وشيخها ، الزعيم العلوى العنيف ، الاكدر بن حمام اللخمى .

وكان قتل الاكدر فى ذاته تراجيديا كاملة ليس هنا مقام تفصيلها . ولقد كان فى مقدور كريب ـ وهو السيد الزعيم ، الموالى للأمويين ـ أن ينقذ حياة زميله . لقد خف اليه قوم الأكدر وسألوه التدخل لأنقاذ زعيمهم . ولكنه كان يؤكد التخلص من ذلك الشيخ الثورى ، فاعتذر عن عدم المضى معهم قائلا : "حتى افرغ من دفن هذه الجنازة" . ولم تكن هذه سوى جنازة زوجته بسيسة التى اتفق ان انتهت حياتها فى ذلك اليوم العصيب .

وراح كريب يجهز زوجته لرحلتها الأخيرة . وأبطأ فى ذلك ما وسعه الابطاء ، فلما فرغ كان الأكدر تم قتله ، وأسدل الستار على فصل عاصف من تاريخ مصر ليتبعه فصل طويل من الهدوء

والاستقرار النسبيين .

٣ ـ إبنة الفارس :

لما دخل العربي مصر كان معه زميل يشاركه صفات الإصالة العربية . ذلك هو : الحصان . ومثلما لمع فرسان وابطال لمعت جياد . فالجيش الذى حصره الروم عند كوم شريك فى اثناء عمليات الفتح مدين بخلاصه للحصان الاشقر ـ أشقر صدف ـ الذى "لم يكن يجارى سرعة" فلم يستطع الروم ادراكه وهو يعدو بصاحبه الى مقر القيادة طلبا للنجدة .

وهناك "عجلى" ـ فرس قبيلة عك ـ التى ابلت أحسن بلاء فى معارك الفتح ايضا ، والتى استحقت ان يغنى الشاعر لها بقوله :

سبـق الاقـوام عجلـى
سبقتـهـم وهـى حبلـى

لما ثار المصريون على الخلافة الاموية سنة ٦٤ ـ ٦٥ هـ لعب "الخطار" احد خيل مصر المشهورة ، دورا فى هذه الثورة التى أخفقت وخضعت مصر بعدها لحكم عبد العزيز بن مروان طوال واحد وعشرين عاما .

وعبد العزيز امير عربى يعجبه الجواد الاصيل فلما رأى الخطار اشتهى ان يقتنيه . لكن صاحبه لبيد بن عقبة السومى رفض أن يتنازل عنه . وكيف يتنازل فارس عن فرسه ولو لأمير ؟

كبر على الامير ذى السلطان المطلق ان يستعصى جندى على أرادته ، فسيره فى الجيش المصرى الذاهب لغزو افريقية عقابا أو انتقاما ، فى الاصح ، يخفى وراء ظاهره المشروع الحقد الذى تثيره الشهوات الشخصية .

صحب لبيد زميله الوفى ، الخطار ، ومضى . وفى معارك افريقية تحقق الاحتمال القوى الذى كان الأمير يتوقعه ، ونجح انتقامه فقد قتل لبيد .

مات الفارس . وبقى الفرس الممتاز ولكنه ضم الى غيره من الخيل يقاسمها حياتها اليومية كأى حصان عادى . ومع الأيام استترت مزايا الجواد الأصيل خلف معرفة مهملة وذيل طويل .

تكدست الخيل التى فقدت فرسانها عند موسى بن نصير ، فاتح المغرب ، وأراد أن يتخفف منها فانتقى مجموعة فيها الخطار وأهداها الى أميره عبد العزيز .

سر الأمير ايما سرور فقد أتت خطته كل ثمارها . تخلص من الفارس المعارض وآل اليه جواده . لكن هناك مشكلة : كيف يميزون الخطار بين تلك الخيل كلها ؟ حاولوا كثيرا . ولكنهم لم يجدوا من يعرفه بعد أن غير الاهمال مظهره ، فلم يكن بد من اللجوء الى الحل الأخير ، الى ابنة لبيد .

دخلت ابنة الفارس الحظيرة ، وطلبت أن تترك وحدها ، ومضت تفحص كل حصان وسرعان ما أهتدت الفتاة العربية الى حصان ابيها الذى طالما ملأت عينيها بمنظره النبيل وعلى صهوته ابوها الفارس الأشم . وجاش صدرها بعاطفة هى مزيج من الحب والانفة والرغبة فى الثأر ، وصممت على أن تحرم صهوته على كل أنسان بعد ابيها . فتقدمت اليه وهى تقسم : "والله لا يركبنك احد بعد ابى سويا" . ومدت يدها فقطعت اذنيه ، وهلبت ـ أى نتفت ـ ذنبه . شوهته لكيلا يصلح للركوب . وأى فارس يرضى امتطاء حصان أصلم ، ازعر ؟ استراحت الفتاة وقد احست أنها حافظت على ارادة ابيها الذى لقى حتفه فى سبيلها فدفعت الحصان اليهم وهى تقول : "هو هذا . خذوه لابارك الله لكم فيه" . ولم يرفضه عبد العزيز . فهو وأن كان لن يستمتع بركوبه يعرف كيف يستفيد منه ، فقد اتخذه للفحلة أى للانتاج .

كم كان عبد العزيز حصيفا وخبيرا فقد انجب الخطار "الزائد" ، وأنجب الزائد "الفرقد" فهو ابو الخيول الفرقدية . ولم يعرف الفرقد فى شىء من خيل مصر الا جاء سابقا .

٤ ـ اسماء بنت ابى بكر:

ليست أسماء بنت ابى بكر الصديق ذات النطاقين . ولكنها سميتها اسماء بنت ابى بكر بن عبد العزيز بن مـروان . وقد استطاعت اسماء المصرية ان تنال من الذكر فى تاريخ مصر الخاص ما نالت اسماء الحجازية فى تاريخ الاسلام العام .

لما كتب عثمان المصحف الرسمى الموحد ارسل نسخا منه الى المدن الأسلامية الرئيسية ليتخذها المسلمون هنالك مصاحف أئمة يرجعون اليها وينسخون منها . وأغفل الخليفة مصر فلم يرسل اليها مصحفا . فلما كان عبد العزيز بن مروان سد ذلك النقص وكتب للمصريين مصحفا اماما عام (٧٦ هـ) . لكن من الحق أن هذا المصحف كان ملكا خاصا لعبد العزيز بالرغم من أنه وضع نظاما ثابتا لأستعماله استعمالا عاما فى أضيق الحدود . فكان يحتفظ به فى داره طول الأسبوع . حتى اذا كان صباح يوم الجمعة حملوه الى المسجد الجامع حيث يبدأ صاحب القصص عمله بالقراءة فيه ، ثم يمضى يقص . فاذا فرغ اعيد المصحف الى موضعه من دار عبد العزيز .

ولما توفى عبد العزيز بعد عشر سنوات من ذلك (٨٦ هـ) عرض مصحفه هذا للبيع فى ميراثه . وكأنما استنكف ابنه ابو بكر أن يقع مصحف ابيه فى حوزة رجل آخر ، فدفع الف دينار مقابل الاحتفاظ بملكيته . ولم يزل يجرى على نفس النظام الذى استنه ابوه لأستعمال المصحف طوال عشر سنوات اخر انتهت بوفاته سنة (٩٦ هـ) .

لقد أصبح المصحف جزءا من تاريخ الأسرة وتراثها اللذين لم تكن اسماء بنت ابى بكر اقل حرصا عليهما من ابيها . فعادت وأشترت مصحف جدها ، من ميراث ابيها ، بسبعمائة دينار . ثم لم تلبث حتى اصبح لها معه صنيع هام ، فقد خطت به خطوة جديدة وهامة ، عبر عنها المؤرخون بقولهم أنها "امكنت منه الناس ، وشهرته" . ولعل اقرب التفسير لهذا هو أنها ابقت المصحف فى المسجد زمنا اطول ، وسمحت للمختصين ، كالعلماء والقراء

بالقراءة فيه والرجوع اليه والنسخ منه . وهكذا لم يعد المصحف وقفا على الاستعمال الرسمي الذى يباشره صاحب القصص .

وكافأت الحياة ـ الحياة اليومية ممثلة فى الناس العاديين ـ اسماء . فنسى هؤلاء الناس صاحب المصحف الأول ـ عبد العزيز ـ ونسبوه الى حفيدته اسماء . وجاء المؤرخون من بعد فتبعوا الركب ، وتحدثوا عنه تحت اسم "مصحف اسماء" ، تماما كالقارة الامريكية التى كشفها كولمبس ولكنها حملت أسم امريجو .

٥/ـ زوجة القاضى

وفد من حضر موت الى مصر ـ مع الفتح وبعده ـ عدد استطاع بالرغم من قلته النسبية أن يكون له شأن . واستطاع هؤلاء الحضارمة المهرة المجدون الأمناء أن ينالوا ثقة الخليفة العملى : معاوية ، الذى نصح امير مصر ، مسلمة بن مخلد ، بألا يختار موظفين من غير الأزد أو الحضارمة "فأنهم أهل الأمانة" .

ويكفى دليلا على تفوق هؤلاء الناس أنهم استطاعوا أن يستحوذوا فيما يشبه الاحتكار على مرفق من أخطر مرافق الحياة فى المجتمع المصرى بما يمس حياة الناس اليومية مسا مباشراً ، ويتحكم فيها تحكما فعليا . ففى حوالى قرن ونصف قرن (٨٤ ـ ٢٤٤ هـ) ولى قضاء مصر تسعة من رجال حضرموت أى بمعدل قاض واحد كل ثمانية عشر عاما . هؤلاء عدا من ولى القضاء منهم فى الأندلس وبرقة وفلسطين وحمص ودمشق . وليس بمستغرب أن يلفت هذا الشاعر ليقول :

ياحضرموت هنيئا ما خصصت به
من الحكومة بين العجم والعرب
فى الجاهلية والأسلام يعرفه
أهل الرواية والتفتيش والطلب

كان توبة بن نمر احد هؤلاء الرجال الذين وكلت اليهم الدولة

الحكم بين الناس من سنة (١١٥هـ) الى ان عزله الموت سنة (١٢٠) هـ .

وتوبة هذا هو المؤسس الفعلى لما نعرفه اليوم باسم وزارة الأوقاف . فقد كانت الأحباس - اى الأوقاف - جمع حبس بضمتين . وهو كل شيء وقفه صاحبه من نخل أو كرم أو غيرها يحبس اصله وتسبل غلته فى ايدى اهلها وفى أيدى أوصيائهم . فلما ولى توبة القضاء قال : "ماأرى مرجع هذه الصدقات إلا الى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدى عليها حفظا لها من الالتواء "والتوارث" . وأدخلها الى سلطان الدولة ، وجعلها مرفقا حكوميا . "فلم يمت حتى صار الاحباس ديوانا عظيما" .

وقد حفظت لنا الرواية امثلة اخرى للمواقف الانسانية لتوبة . لعل من أهمها أنه كان لايملك شيئا الا وهبه ووصل به أخوانه وأفضل به عليهم . ودافع توبة عن تبذيره هذا الذى يرجع الى نزعة زهدية فى قوله :

نشبى وما جمعت من صفد
وحويت من مال ومن لبد
همم تقاذفت الهموم بها
فنزعن من بلد الى بلد
ياربح من حسمت قناعته
سبب المطامع من غد وغد
من لم يكن بالله متهما
لم يمس محتاجا الى احد

أنه أديب ايضا ، والأدب اريحيه . وكان توبة ، القاضى الخبير بالطبيعة العربية ، لايقبل شهادة مُضرىٍ عِلى يمانى ولا يمانى على مُضرى . وبالرغم من هذا كان - وهو اليمانى - له زوجة مُضرية من أشجع من سعد من قيس . ليس هذا فحسب بل أن الذى اسند القضاء الى توبة هو أمير مصر القيسى : الوليد بن رفاعة . وأكثر

من هذا أن الذى رشحه لدى الأمير ، وقام بأمره حتى ولى هو عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر ، ومولى قيس ، وصاحب المشروع الذى أدى إلى تهجير عدد ضخم من قبيلة قيس إلى مصر .

لاشك في أن هذا الرجل الكبير كان قد سما فوق العصبية . وتجاوز افقها المحدود . ولا شك ايضا فى أن أمير مصر شعر بالارتياح الشديد عندما وفق اليه ، ففيه يتحقق ما أمر به الخليفة هشام عندما كتب اليه بعد أن سخط على القاضى السابق لتوبة : "أصرف يحيى عما يتولاه مذموما مدحورا ، وتخير لقضاء جندك رجلا عفيفا ، ورعا تقيا ، سليما من العيوب ، لاتأخذه فى الله لومه لائم" .

ذهب رسول الأمير الى توبة يقلده ولاية القضاء فوجده على سريره ومعه امرأته عفيرة . لم تنصرف عفيرة ، بل لم تحتجب ، فقد كانت أمرأة برزة ، أى متجاهرة كهلة تبرز للقوم يجلسون اليها ويتحدثون وهى عفيفة .

فطنت المرأة الذكية لما ينطوى عليه هذا الصنيع من تقدير لزوجها وأعتراف بنزاهته ، وأطمئنان الى عدالته . فقد كان الامير ـ فى الأغلب الاعم ـ يحرص على أن يكون كبار الموظفين ـ صاحب الخراج ، صاحب الشرطة ، القاضى ، وغيرهم ـ من نفس قبيلته ضمانا لولائهم فقد كان الموظفون حينذاك يمارسون الشئون العامة على أساس من الميول الشخصية ، والنزعات القبلية . لذلك لم تتمالك عفيرة نفسها من أن تلتفت الى زوجها وتهتف به فى فرح يمتزج بالأعجاب والفخر والاعتراف بالحق :

ـ أما والله ياتوبة ما حاباك ابن رفاعة بهذه الولاية ، ولو أنه وجد فى قيس كلها من يسد مسدك أو يستضلع بهذا الامر لآثره عليك ، وقدّمه وأخرك .

ولما كانت عفيرة سيدة مجتمع فقد خشى توبة ان يحاول الناس استغلال صلاتهم الاجتماعية بها فى الافادة من منصبه الجديد

الخطير . فدعاها منذ اللحظة الأولى وقال لها :

ـ ياأم محمد : أى صاحب كنت لك ؟

قالت : خير صاحب وأكرمه .

قال : فاسمعي : لاتعرضن لى فى شيء من القضاء ، ولا تذكرني بخصم ، ولا تسألنى عن حكومة . فإن فعلت شيئًا من هذا فأنت طالق . فأما أن تقيمى مكرمة ، وأما أن تذهبى ذميمة .

لم تكن عفيرة أقل من زوجها الحازم النزيه حرصا على العدالة فآثرت ـ وهى الزوجة والأم وسيدة البيت ـ أن تضع الصالح العام قبل عواطفها الشخصية . فانتقلت عن زوجها ، فلم تكن تأتيه الا فى الشهر والشهرين . وضربت المرأة القوية على نفسها حرمانا اختياريا من بيتها وزوجها طوال اربع سنين وشهر انتقل بعدها توبة الى جوار القاضى الأكبر صاحب الدينونة .

٦ ـ زوجة الخارجي :

فى الموضوع السابق « رجال متمردون » أشرنا إلى معونة زوجة الخارجى وُهَيْب الذى حاول اغتيال أمير مصر الوليد بن رفاعة الفهمى بسبب يتعلق ببناء الكنائس في مصر . ورأينا كيف عاقبه الأمير بالقتل ، وكيف تحرك القُرَّاء ، زملاء وُهَيْب ، ضد الدولة فى محاولة للثأر لزميلهم . ونضيف هنا أن « معونة » استبدَّ بها الحزن على مصرع زوجها فحلقت رأسها حداداً عليه ، واستبدَّ بها الغيظ فكانت تطوف ليلاً على منازل القراء تذكرهم مصرع وهيب ، وتحرضهم على الانتقام له .

على الرغم من اندحار القراء أمام قوات الدولة وفشل محاولتهم مثلما فشلت محاولة زميلهم وهيب من قبل ... نقول على الرغم من هذا فإن سلوك « معونة » هذه يُعَدُّ نموذجاً كاملاً لموقف المرأة العربية فى مصر التى كانت ماتزال ، على الرغم من مضى أكثر من قرن على ظهور الاسلام وسيادته ، تدين بفكرة الانتقام الشخصى من القاتل غير منصاعة للتطوير الهام الذى جاء به الاسلام حين

جعل الثأر لدم القتيل عملاً من اختصاص الدولة ، وواحدة من مسئوليتها الرئيسية .

٧ - الزوجة العذراء

١ش٣ كانت السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأموية مشحونة بالأضطرابات والثورات نتيجة لجهود العلويين والعباسيين الذين كانوا يثيرون السخط على الأمويين فى كل مكان . ويعملون على تقويض دولتهم . وكانت مصر مسرحا لفصول عنيفة من هذه الاضطرابات . لكن كانت آخر حركة سبقت السقوط النهائى للأمويين وقيام الدولة العباسية هى تلك الحركة التى اطلق عليها اسم : "التسويد" حيث كان الافراد يجهرون بانضمامهم الى الدعوة العباسية ويلبسون السواد علامة على هذا الانضمام . وأستعلنت هذه الحركة في مصر عام ١٣٢هـ . فى الحوف الشرقى ، والاسكندرية ، والصعيد ، وأسوان . وكان الذى سود بالصعيد هو عبد الأعلى بن سعيد الجيشانى . وقد كافأه العباسيون بعد أن فتحوا مصر فاقطعوه قطائع فى الميمون وأهناس ، وولوه كبريات المناصب الحكومية ، وأصبح من وجوه الدولة ورجالاتها ، فضلا عن نشاطه العلمى القديم .

وكان هذا كله ، بل بعضه ، يكفى ليجعل من عبد الاعلى حلم كل سيدات الطبقة الارستقراطية . لكن عبد الاعلى كان يريد واحدة بعينها : أم شراحيل الكلالية . ولما لم يكن ابوها على قيد الحياة فقد خطبها عبد الاعلى الى عمها . ولم يسع العم ، الذى لم يجد مغمزا فى عبد الاعلى الا أن يوافق ، ويعقد نكاحه على ابنة اخيه . ولا شك فى أن عبد الأعلى وضع مكانته الأجتماعية ومكانة خطيبته كذلك موضع التقدير حين فرض لها من الصداق الف دينار . لكن يبدو أن قد كان هناك خلاف من نوع ما بين شيوخ القبيلة ، ولعله كان نزاعا أو تنافسا على أم شراحيل ذاتها ، فأن بعض اولياء أم شراحيل انكروا هذا الزواج ، ولم يوافقوا العم على تصرفه زاعمين

ان عبد الأعلى غير كفء لابنتهم .

وكان في مصر حينذاك (١٤٤ ـ ١٥٢ هـ) قاض من طراز فريد ، هو ابو خزيمة الرعيني ، كان يكسب قوته ـ قبل القضاء ـ من عمل الارسان أى حبال الليف . وكان نزيها متحرجا ، بلغ من تحرجه أنه كان أذا غسل ثيابه ـ وهو قاض ـ أو شهد جنازة ، أو أشتغل بشغل لم يأخذ من مرتبه بقدر ما أشتغل . وقال : انما آنا عامل للمسلمين . فاذا أشتغلت بشيء غير عملهم فلا يحل لى أخذ مالهم .

الى هذا القاضى ذهب أولياء أم شراحيل يطلبون اليه فسخ زواجها من عبد الاعلى ولما كان الزواج صحيحا تماما ، ولا سبيل الى الطعن فيه فقد اجابهم ابو خزيمة بقوله : "ما أحل ما حرم الله ، ولا آحرم ما آحل الله . اذا زوجها ولى فالنكاح ماض"

لم ينهزم أولياء ام شراحيل المعارضون . فلئن كان القضاء الصريح الورع قد خذلهم فأن السياسة المرنة ذات الألاعيب لن تخذلهم . وذهبوا الى والى مصر ، يزيد بن حاتم المشهور بالسخاء . وعرضوا عليه الامر ، فأقر وجهة نظرهم ، وحكم بعدم كفاءة عبد الأعلى لابنتهم ، وأرسل الى أبى خزيمة يأمره بفسخ النكاح . لم يكن ابو خزيمة بالقاضى الذى يخاف سطوة الحكام ويعمل على ارضائهم ولو على حساب العدالة . فآمتنع عن تنفيذ الامر . لكن الوالى لم يكن ينتظر سوى هذا الرفض الذى كان يتوقعه من القاضى النزيه . فألقى السهم الذى كان يدخره ومارس سلطته كأمير . وتولى بنفسه التفريق بين عبد الأعلى وعروسه التى لم يكن قد دخل بها بعد .

لم يعد آمام آم شراحيل . ولا عمها ولا زوجها ما يفعلون سوى ابيات من الشعر . لعلها جزء من قصيدة كبيرة سجل فيها عبد الأعلى الزوج المغلوب على أمره ـ وكان شاعرا كذلك ـ ما حدث له . ونقد مجتمعه . وانتقم لنفسه ، وفرج عن صدره . قال :

وأعلنت الفواحش في البوادي
وصار الناس اعوان المريب
اذا ما عبتهم عابوا مقالي
لما في القوم من تلك العيوب
وودوا لو كفرنا فاستوينا
وصار الناس كالشيء المشوب
وكنا اذا نستطب مرضنا

٨ - الزوجة المشاكسة

قبيلة المعافر قبيلة يمنية قوية كبيرة . يتسم رجالها بشدة البأس والمهارة في القتال . اشتركت في فتح مصر وظلت طوال القرون الثلاثة التالية تلعب أعنف الادوار على مسرح الحياة فيها .

وحدث أن تزوج ابو الكروّس ، أحد أفراد قبيلة كلب ، التي لم يكن لها بمصر ما للمعافر من أهمية وسطوة ، سيدة معافرية . ووقع بين ابي الكروس وزوجته يوما ما يقع بين كل زوجين من خلاف . لكن الزوجة المعافرية التي تحمل في دمائها عنف قبيلتها وعجرفتها تطاولت على زوجها الكلبي ، ولعل الزوج وجدها فرصة سانحة للتخلص من هذه الزوجه المتعالية فطلقها . لكن لم تكن المعافرية لتسلم في سهولة . فادعت انها لم تقبض صداقها وأقامت دعوى ضده تطالب به . ونظر الدعوى قاضي مصر المفضل بن فضالة (١٦٨ - ١٦٩ هـ) . عجب ابو الكروس لهذه الزوجة المشاكسة . المولعة بالخصام ، الباحثة عن المتاعب ، التي تستحل كل الوسائل لمكايدته والانتقام منه . فهتف في حضرة القاضي :

الا طرقتنا سحرة أم شاكر :
بكارا ، وهل يؤذيك الا المباكر ؟
وقد أخذت مهرا لما كان عندها .
وهذا شهودي حمير والمعافر

وأحسَّ القاضى الفطن صدق الزوج المعذب . فقال له :

يا أبا الكروس : ان شهد لك بالبراءة حكمنا لك . وان شهد عليك فعلينا الوفاء عنك .

٩ ـ السيدة نفيسة :

بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن ابى طالب . دخلت مصر فى أخريات القرن الثانى للهجرة مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق . ولم تلبث حتى أصبحت من ابرز شخصيات المجتمع وأحبها الى قلوب المصريين لما اجتمع لها من وجوه التفوق واسباب الفضل . فقد جمعت بين الأصل الزكى ، والتفوق المادى ، والامتياز العقلى ، والسمو الروحى . وأصبح بيتها كعبة يحج اليها الزمنى ، والمرضى ، وأصحاب الحاجة الطامعون فى احسانها المبذول ، وطلاب المعرفة الراغبون فى علمها ، وأصحاب المشكلات المستعصية المؤمنون بكراماتها . وهكذا ظلت السيدة نفيسة مالا يقل عن عشر سنوات تبذل الصدقات ، وتفسر القرآن ، وتروى الحديث . كما ابرأت المقعد ، وأطلقت الاسير ، وأجرت النيل .

وشاءت الظروف أن يتعاصر الامام الشافعى والسيدة نفيسة فى مصر حوالى سبع سنوات . وكان طبيعيا جدا أن تتوثق بينهما الصلة . فكلاهما قرشى ، وكلاهما من أهل العلم ، وكلاهما من أهل العبادة والتقوى . لكن الشافعى كان فقيرا بقدر ما كانت السيدة نفيسة غنية . ولم تكن السنوات التى ختمت بها حياته فى مصر سوى ضائقة مالية موصولة الحلقات كانت السيدة نفيسة تحاول التخفيف منها بعونها الموصول . وظل الشافعى يتردد عليها ، ويصلى بها التراويح فى مسجدها ، ويطلب اليها أن تدعو له ، ويسمع عنها الحديث . ولما توفى سنة ٢٠٤ هـ تم بينهما اللقاء الأخير لقاء الوداع عندما أدخلوا جنازته اليها ، فصلت عليه فى دارها .

وبعد ذلك بأربع سنوات انتهت هذه الحياة الكريمة التى تفيض هدى وخيرا ، وطهرا وعلما . ورأى زوجها واجبا عليه أن يعود بالجثمان الكريم الى أرضه الأولى بالمدينة المنورة . لكن السيدة نفيسة كانت قد اصبحت جزءا اصيلا من الحياة المصرية ذاتها ، ومعلما شامخا من معالمها الروحية ، وجانبا كريما من تراثها العريق . وأدرك المصريون ان نقل جثمانها من بلادهم محو لفصل من تاريخهم ، وهدم لجانب من حياتهم ، وتهاون عن مجد من امجادهم . واستجاب زوجها لرجاء المصريين ، فأودع جثمانها ثرى مصر الذى طالما ضم رفات الخالدين .

* * *

أما بعد

فأرجو أن يكون فى هذه الصور ما يكفى لتكوين فكرة ما عن المرأة كما عاشت فى مصر فى فجر الاسلام (القرون الثلاثة الأولى للهجرة) . واذا نحن أضفنا الى هذه الصور المعلومات المتناثرة التى تقدمها المصادر المختلفة استطعنا أن نطمئن الى أن المرأة المصرية حينذاك كانت تنزل الى الحياة العامة ، وتمارس حقوقها المدنية فهى تشترى وتبيع ، وتؤجر وتحبس ، وتورث وترث وتقاضى وتتصدق ، وتعتق ، وتمشى فى الاسواق ، وتدخل الحمامات ، وتشهد القتال ، وتندب وتغنى ، وتتعبد وتتفقه .

وعقود الزواج التى حفظتها أوراق البردى تظهر أن المرأة كانت تتقاضى صداقا اقله دينار . وفى كثير من الاحيان يدفع نصف الصداق حالا . وكان الزوج يعطى زوجته سندا بما تأخر لها من الصداق يطلق عليه اسم (ذكر حق) أى كمبيالة . وكان ينص فى عقد الزواج على شروط المعاشرة الزوجية ، ومنها : تقوى الله ، حسن الصحبة والمعاشرة وفقا لأوامر الله وسنة النبى . ولم يكن نادرا أن يشترط الزوج على نفسه أن كل أمرأة يتزوجها يكون لزوجته الحق فى تطليقها ، وكل جارية يملكها يكون لزوجته الحق فى

بيعها أو أعتاقها . ولا يمنعها من اهلها ولايمنع اهلها منها .

وتعبر كلمات الترحم ، وجمل الدعاء المنقوش على شواهد قبور النساء عن عاطفة الاعزاز والمودة التى يحملها الرجال نحو نسائهم .

وفى الأسماء التى كانت تطلق على النساء مجال للتأمل .

فمثلما يفضل فى أسماء الرجال تلك التى تعبر عن العبودية لله ، صيغت الأسماء النسائية لتعبر عن المعنى نفسه فقيل :

أمة المؤمن ، آمة الرحمن ، امة القادر ، آمة الله ، آمة العزيز ، امة السلام ، آمة الرحيم .

وتعكس الأسماء النسائية تعلق المرآة الفطرى بالأمومة فنجد :

أم يحيى ، ام سلمة ، أم محمد ، أم كلثوم ، آم القاسم ، آم سعيد ، ام ابراهيم ، آم جرير .

وتعكس اسماء اخرى التعلق بالجزيرة العربية ومعالمها مثل :

طائفية ، مكية ، قرشية ، عرفة ، هاشمية ، حرمية .

وهناك آسماء تنم عن الذوق السليم والتأنق مثل :

تسنيم ، حسناء ، مؤنسة ، حوراء ، مرام ، سادة ، ليلاء ، الف . وقد يلفت نظرنا تلك الاسماء النسوية التى آصبحت فى ايامنا خاصة بالرجال مثل :

زيادة ، آنيس ، عرفة ، شهريار ، جمعة ، غزال .

وآيا كان الأمر فهناك حقيقة واضحة نخرج بها من هذا كله ، تلك هى ان المرآة قد ظلت فى تلك الحقبة من تاريخ مصر ـ مثلها فى غيرها من الحقب ـ ظاهرة على مسرح الحياة تلعب دورها ، وتؤدى رسالتها .

أسوان مدينة السوق

كان قيام السد العملاق الذى وضع قدمه فى اقصى الجنوب من بلآدنا إيذاناً ببدء مرحلة جديدة فى حياتها بعامة وفى حياة اسوان بخاصة ، هذه المدينة التى لم تزل تطالع الدنيا منذ الاف السنين بصفحة ثابته كتب اولى كلماتها المصرى القديم منذ ان كشف مزايا صخور الجبل الشرقى المواجه لجزيرة الفنتين فراح يقتطع الجرانيت لينحت منه ابدع تماثيله وآخلد مبانيه .

هنالك نشأت على الشاطىء الشرقى قرية متواضعة تستمد اهميتها من عاصمة مقاطعة الحدود مدينة "يب" القائمة فى جزيرة الفنتين . ولم تزل هذه القرية تنمو على حساب "يب" حتى امتصت حيويتها وسلبتها أهميتها وحلت محلها . ولما كان التجار القادمون من الشمال ، والغرب "الواحات" ، والجنوب "بلاد كوش" قد وجدوا فى المدينة الناشئة مكانا مناسبا يتبادلون فيه سلعهم فقد أطلقوا عليها الكلمة الفرعونية سوانswan اى : السوق .

وفى القرن السادس قبل الميلاد على الأكثر نزحت الى اسوان جالية يهودية حيث عاشت وأقامت معبدا للاله يهوه بها . ولم تكن اسوان غريبة على هؤلاء اليهود فقد ذكرها نبيهم حزقيال بآسم سفنه seveneh وهو يهدد مصر بالخراب فى نبوءاته العنيفة التى يزدحم بها السفر الذى يحمل اسمه من اسفار التوراه :

"لذلك هانذا عليك وعلى أنهارك ، وآجعل أرض مصر خربة مقفرة من مجدل الى اسوان الى تخم كوش" (اصحاح ٢٩ : ١٠) . "هكذا قال الرب : ويسقط عاضدو مصر وتنحط كبرياء عزتها من مجدل الى اسوان يسقطون فيها بالسيف يقول السيد الرب" (أصحاح ٣٠ : ٦) .

ولما دخل اليونانيون مصر حرفوا الاسم قليلا فجعلوه سيين syene وأولى الرومان سيين عناية خاصة فجعلوا منها حصنا منيعا يستطيع أن يصمد لغارات قبائل الصحراء والنوبه .

ولم تكد المسيحية تدخل مصر حتى اخذت طريقها الى أسوان التى أصبحت كرسيا لاسقفية . ولما بدأت الدولة تضطهد المسيحيين لم يجد المؤمنون ملاذا يفرون اليه بعقيدتهم أفضل من أسوان فأنشئوا بجوارها اديرة ماتزال اطلالها شاخصه .

ولما فتح العرب مصر استهوت اسوان عددا من القبائل اليمنية والحجازية وأفرادا من قريش بخاصة ونطق هؤلاء العرب اسم المدينة كما ينطقه الاهالى بعد أن أضافوا اليه همزة فى أوله لأنهم لايستحبون البدء بالساكن ، وليخلعوا على الاسم - ربما - طابعا عربيا أغرى المؤلفين الاسلاميين فيما بعد بأن يطبقوا عليه عادتهم السيئة الغريبة فى ارجاع اسم أى مدينة الى أصل عربى قح ، فزعموا أن أسوان من قولهم ، أسى الرجل يأسى أسى إذا حزن ، ورجل اسيان وأسوان أى حزين ! ! وأن ظل بعضهم أمينا للاصل فكتبها سوان دون أن يحاول تعليلها .

ولحظ المؤرخون والجغرافيون الاسلاميون أن أسوان تتمتع بتربة خصبة تنمو بها الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضروات والبقول ولكنها اصلح ما تكون لنمو النخل حتى أن النواة تودع الارض فتنبت نخلة ويؤكل ثمرها - فيما زعموا - بعد سنتين ، متفوقة فى ذلك على تربة البصرة والكوفة وغيرها من أرض النخل : ولذلك كثر النخل فى اسوان وتنوعت اصناف البلح تنوعا مدهشا لامثيل له فى العراق ولا فى الحجاز ، حتى إن هارون الرشيد لما أمر ان تحمل اليه انواع التمور التى تنبت فى اسوان ، من كل صنف ثمرة واحدة ، جمعت له - فيما زعموا ايضا - ويبة . والى جانب الكثرة والتنوع اتصف تمر اسوان بالغرابة فكان منه رطب اشد خضرة من السلق ، وبسر يصير تمرا دون أن يرطب .

كما لحظوا أن فى اسوان تكثر الابل والبقر والغنم التى تتمتع لحومها بالطيب والسمن .

أما أهلها فالغالب عليهم سمرة الالوان وفى لسانهم لكنة تجعلهم عندما يتكلمون يجعلون الطاء تاء فيقولون : التريق والتاق ، كما يبدلون الفاء بالباء ، والباء بالفاء .

ولما كانت اسوان قد قامت اصلا عند محاجر الجرانيت فقد ظلت على مر العصور مصدرا للعمد ـ ومن أشهرها عمود السوارى بالاسكندرية ـ وحجارة الطواحين . وربما كانت هناك علاقه لغوية بين الاسم "أسوان ، وبين كلمة الصوانه وجمعها الصوان وهى ضرب من الحجارة شديد . كما عرفت اسوان بأنتاج القدور والاباريق الفخاريه .

ولما كانت اسوان سوقا فقد كان عليها ان تكون على صله بمن حولها أو هى ـ فى الاصح ـ لم تصبح سوقا إلا لاتصالها بمن حولها . فهى أقرب مكان معمور الى وادى العلاقى جنوبيّها حيث مناجم الذهب والزمرد وتتصل من الغرب بالواحات . أما من ناحية الشرق فهناك طريق يربط بينها وبين عيذاب على ساحل البحر الاحمر حيث كانت ترسو وتقلع السفن القادمة من والذاهبه الى الحجاز واليمن والهند . لذلك كله ظلت لأسوان أهميتها الاقتصادية عبر العصور ، فكانت السوق الطبيعية لتجارة النوبة واواسط افريقيه والهند ، يرد اليها العبيد والذهب والعاج وريش النعام ، ويصدر منها القمح والنبيذ والمنسوجات . وفى قرون الاسلام الأولى كانت اسوان المكان المختار الذى يبدأ منه الحجاج رحلتهم ـ مخترقين الصحراء ـ الى عيذاب ومنها يركبون البحر الى جدة .

على ان اهم صلات اسوان الخارجية كانت صلاتها بالنوبة . فعند أسوان تنتهى مصر وتبدا بلاد النوبة . وتعرف المنطقة المتاخمة لاسوان من بلاد النوبة باسم "مريس" وهى كلمه مصريه قديمه تعنى الجنوب . ومازال المصريون حتى اليوم يصفون الرياح

الجنوبية بأنها مريسية . وينتمى بشربن غياث المريسى ، أحد ملاحدة الاسلام (ت ٢١٨) هـ الى هذه المنطقة . وأولى مدن مريس . وبالتالى النوبه هى "القصر" التى ظلت طوال قرون كثيرة تلعب دورا هاما فى العلاقات بين اسوان - أو مصر كلها فى الاصح - وبين النوبة . ففيها كان يتم كل عام أداء الجزية التى فرضها المسلمون على النوبه بعد أن هادنوهم عام ٣١ هـ والتى كانت نوعا من المبادلة بين البلدين اكثر منها جزية مغلوب لغالب . وأيا كان الامر فقد كان ذلك يتم فى شىء غير قليل من الجلبة اذ كان يتحرك الى مدينة القصر وفد نوبى يتكون من ممثلى الملك ، ووفد مصرى يتكون من نائب أمير مصر ووالى أسوان وأثنى عشر شاهدا عدولا من أهل أسوان . وهناك يتسلم المصريون ثلثمائة وستين رأسا أدميا من النوبه الاصحاء والاقوياء هم مقدار الجزيه المفروضة رسميا . ثم يتسلمون أربعين اخرين هدية لأمير مصر ، وعشرين لنائبه ، وخمسة لوالى اسوان ، وواحدا لكل من الشهود . وفى الوقت نفسه يتسلم النوبة من المصريين المقادير المتفق عليها من القمح والشعير والعدس والثياب والخيل .

وفيما عدا ذلك كانت قوافل التجارة لاتنقطع بين اسوان والنوبة . ومع الزمن اختلط اهل البلدين ، وتشابكت مصالحهم وتوثقت صلاتهم . ولما كان أهل اسوان تجارا أغنياء فقد استطاعوا أن يشتروا فى زمن مبكر ايام الامويين والعباسيين ضياعا كثيرة فى اقليم مريس المتاخم لهم كانوا يؤدون الضريبة عنها الى حكومة النوبه المسيحية ، لكن أحد ملوك النوبه ساءه ان يمتلك المسلمون شيئا من أرض بلاده فانتهز زيارة الخليفة المأمون مصر سنة ٢١٧ هـ ، وبعث اليه وفدا يدعى بطلان هذا البيع لان هذه الارض ملك خاص له ، ولان النوبيين الذن باعوها لايملكون هذا الحق لأنهم عبيد له ، ولا أملاك لهم وانما تملكهم على هذه الضياع هو تملك العبيد العاملين فيها .. أحال المأمون المسألة على حاكم أسوان وشيوخها وعلمائها . ولما رأى أهل أسوان أن الأرض التى أشتروها

ستنزع بناء على هذه الحجة الاقطاعية من أيديهم لأنهم لم يشتروها من مالكها الاصلى لجئوا الى الحيلة فاتصلوا بالنوبيين الذين باعوا لهم الارض وأقنعوهم بأن يعلنوا عدم تبعيتهم لملك النوبة ولايقروا بالعبودية له بل يقولوا : "سبيلنا ـ معاشر المسلمين ـ سبيلكم مع ملككم ، يجب علينا طاعته وترك المخالفة له . فإن كنتم عبيدا لملككم وأموالكم له فنحن كذلك" . وهكذا مضى البيع لعدم اقرارهم بالرق ، وتوارث الناس تلك الضياع .

وأن وقوع اسوان على حدود مصر الجنوبية قد فرض عليها عبء الدفاع عن هذه الحدود ضد القبائل البدوية المتجولة من جهة وضد النوبة المتاخمة من جهة أخرى فبالرغم من العلاقات السلمية المتبادلة بين اسوان والنوبة طالما تعرضت اسوان لهجوم النوبيين عليها فيخف جيش مصر الى نجدتها على نحو ما حدث عام ٣٤٤ هـ أيام أونوجور بن الاخشيد ، وقد أصبحت بلاد النوبة شوكة فى جنب مصر منذ عصر صلاح الدين الايوبى بعد أن اغتصب كنز الدولة الحكم وجعل من النوبه دولة مستقلة . ودفعت اسوان كالعادة الجزء الاكبر من الثمن ، فقد تتابعت عليها هجمات النوبيين طوال القرن الثامن الهجري . وفى أوائل القرن التاسع "٨٠٦ هـ" استطاع النوبيون أن ينتزعوا أسوان من مصر ويضموها بصفة مؤقتة الى ممتلكاتهم .

وفى سنة ١٣٢ هـ كانت الدولة الاموية تترنح قبل ان تنهار تماما . فكان الدعاة العباسيون قد افلحوا فى اقناع الناس بدعوتهم وتعبئة الشعور والسخط على الامويين والشوق الى قيام العباسيين ، فى حين كان الثوار لاينفكون يوجهون الطعنات العنيفة الى الدولة المتداعية . ولما توالت أنتصارات العباسيين فى المشرق وأصبح استيلاؤهم على الحكم مسألة وقت تشجع المصريون المبايعون لهم فى الخفاء فكشفوا انفسهم وانطلقوا "يسودون" أى يلبسون السواد شعار العباسية علامة على اتباعهم دعوتهم . وأستشرت

هذه الحركة التي عرفت بأسم "التسويد" في مصر في الحوف الشرقي والاسكندرية والصعيد ، يتزعمها رجال مصريون موالون للعباسيين . أما في اسوان فقد تزعمها يحيى بن مسلم بن الاشج ، احد أفراد اسرة بني الأشج القوية التي كانت تدين بالولاء لقبيلة بني زهرة القرشية والتي تحمل شواهد القبور عددا كبيرا ـ نسبيا ـ من أسماء أفرادها بصورة تدل على استمرار وجودها في آسوان حتى القرن الثالث .

ومن الحق أن معظم ـ آن لم يكن كل ـ من بقى لنا ذكرهم من أهل اسوان أما محدثون وأما فقهاء وآما يجمعون بين الصفتين . ففي سنة ١٤٣ هـ توفي في آسوان المحدث المدني عبد الرحمن بن عطاء بن كعب العامري الذي ترك المدينة الى مصر ليموت بأسوان . ويبدو أن الامام مالكا لم يكن يرى ضرورة لهذه الرحلة فقد علق عليها بقوله : "غرب نفسه" .

وفيما بين عامي ٢٢٦ ـ ٢٣٥ هـ كان سهل بن سلمة الاسواني يشتغل بالشهادة عند ابن ابي الليث قاضي مصر العنيف الذي قام بامتحان المصريين بخلق القرآن ـ تنفيذا لاوامر الخليفه ـ ونالهم منه في ذلك أذى شديد . وقد أثر ذلك على عدالة سهل بن سلمة كشاهد ، فقد رفض الحارث بن مسكين ، الذي خلف ابن ابي الليث على قضاء مصر ، شهادته ـ بالرغم من أنهم عدلوا عنده ـ لالشيء الا لأنه من أعوان آبن أبي الليث .

واستطاع أن ينال شهرة واسعة الفقيه الشافعي ابو حنيفه الاسواني قحزم بن عبد الله ابن قحزم ، الذي صحب الامام الشافعي وتتلمذ عليه وروى عنه كثيرا من كتبه وكان اخر اصحابه موتا "ت ٢٧١ هـ" وحمل أبو حنيفه مذهب استاذه الى أسوان واقام سنين يفتي فيها به . ومن آهم ما يميز أبا حنيفه هذا انه قبطي الاصل أي مصري ، وهو لذلك يعد احد معالم الطريق الذي شقه الاسلام في البيئة المصرية .

وهناك آبو على الحسن بن يوسف بن يعقوب الفحام المحدث الثقة (ت ٣١٨ هـ) الذى كان يشتغل بالحديث ويعيش من بيع الفحم .

ومن المحدثين الاسوانيين كذلك آبو بكر محمد بن عبد الوارث العسال من موالى عثمان بن عفان ، "ت ٣٢١ هـ " وكان محدثا ثقة ، وكان يتجر بالعسل . وقد حلت به اسوا نكبة يمكن آن تحل بعالم ، فقد احترقت كتبه كلها ، ولم ينج منها سوى اربعة آجزاء . ويبدو ان ذلك الحادث اصابه بحزن شديد ادى الى وفاته بعد سنة واحدة .

ويوازى ابا حنيفة السابق ذكره فى الشهرة مواطنه ذو المزايا العديدة ابو رجاء الاسوانى ، محمد بن احمد ابن الربيع الشافعى ، الاديب الفصيح الذى الف فى الفقه والطب والفلسفة وتوفى عام ٣٣٥ هـ . ومن آهم مؤلفاته قصيدة كبيرة ذكر فيها آخبار العالم وقصص الانبياء . وقد سبق بهذه القصيده من حيث الموضوع الثعلبى النيسابورى (ت ٤٢٧ هـ) صاحب كتاب قصص الانبياء المسمى بالعرائس ويلفت النظر فى هذه المنظومة التاريخية التى ربما كانت الاولى من نوعها من حيث الشكل كذلك ، طولها غير العادى فقد بلغت مائة الف وثلاثين الف بيت ، وبالرغم من ذلك يصرح ابو رجاء بأنه قد بقى عليه اشياء تحتاج الى زيادة ! وكما عرف المذهب الشافعى طريقه الى فقهاء اسوان ، وبالتالى الى اهلها ، عرفه المذهب المالكى ولكن فى وقت متاخر نسبيا . ففى سنة ٢٤٠ هـ توفى الفقيه المالكى الكبير ابو الذكر الاسوانى ، محمد بن يحيى بن مهدى التمار الذى اشتغل بتجارة التمر ـ وهذا طبيعى بالنسبة الى اسوانى ـ ومهر فى الفقه حتى كان المشار اليه فى مذهب مالك بمصر . ونال ابو الذكر فى مصر قدرا ومنزله جليلة وولى قضاءها . وكان عابدا مجتهدا فى العبادة بالرغم من آن

اصابته بالباسور كانت تضعفه عن ادمان التعبد .

وأخيرا فلقد عاشت اسوان حياة نشطة مارست فيها التجارة والعلم والحرب وكان لها دور ايجابى وفضل بارز على الحياة المصرية على مر العصور ، ولاشك فى أن الانحلال العام الذى أصاب الكيان المصرى كله منذ أيام المماليك هو المسئول عن الانحدار المطرد الذى سارت فيه اسوان حتى لم تعد فى العصر الحديث اكثر من مشتى للسائحين ومنفى للموظفين ويخيم عليها الخمول ويطبعها التخلف ولم يفلح خزان اسوان الذى أقيم عندها فى مطلع القرن الحالى فى أن يجدد شبابها . لكن لاشك أن السد العالى قد أنشأها خلقا آخر . ومن الطريف أننا نجد فى هذا الموقف تطبيقا جديدا لذلك القول القديم جدا ، قول الجامعة ابن داود الملك : "ما كان فهو ما يكون ، والذى صنع فهو الذى يصنع ، فليس تحت الشمس جديد" . فكما أن المصرى قد فكر فى ، بل حاول . الربط بين البحر الاحمر والبحر الأبيض أكثر من مرة قبل أن يتحقق ذلك على صورته الحالية فى العصر الحديث ، فكذلك يروى ياقوت (ت ٦٢٦هـ) عن الجغرافى الرحالة ابى بكر الهروى " أن عند اسوان موضعا ضيقا فى النيل ذكر أنهم أرادوا أن يعملوا جسرا عليه . ليت شعرى اهو نفس الموضع الضيق الذى اقيم السد عليه اليوم . من يدرى ؟ .

النوبة : بلاد الاساود

الفتح

لما فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ كان عليهم لكى يؤمنوا مراكزهم بها ، لا أن يمدوا سلطانهم ناحية الغرب فحسب ولكن ناحية الجنوب كذلك حيث كانت تبدأ بعد أسوان ـ نهاية حدود مصر ـ حدود بلاد واسعة تسكنها قبائل محاربة دائمة التطلع الى أرض مصر الغنية والاغارة عليها ، تلك هى بلاد النوبة حيث كانت تقوم منذ أواسط القرن السادس الميلادى مملكة مسيحية شعبها مزيج من الليبين والزنوج وتتخذ من دمقلة (دنقله القديمة حاليا) عاصمة لها .

جعل عمروبن العاص يرسل كتائب الفرسان تقتحم على النوبيين أرضهم وتناوشهم دون أن تصل الى نتيجه حاسمة ، فقد وجدت فيهم محاربين أشداء لايعتمدون على السيف فى القتال ولكن على القوس التى يرمون عنها فلا يخطئون . ولاشك فى أن المغيرين العرب قد أحسوا حينذاك بما بين بلاد النوبة وبين اليمن من تشابه فى البيئة والجو حتى كأنها جزء من أرضه ، ورأوا ماينبت بها من الحنطة والشعير والذرة والنخل والكروم ، والموز والاترنج ، والمقل والاراك ،ومايسعى عليها من الابل والبقر والغنم ، والخيل والبراذين . بل لعل ألسنتهم عربّت حينذاك فقط كلمة نوباتاى nobatae التى كانوا يعرفون بها منذ نقلهم دقلديانوس الامبراطور الرومانى من واحة الخارجة الى وادى النيل عام ٢٨٥ م ثم صرف عمرو عن حكم مصر وخلفه عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح عام ٢٥ هـ . ولما لم تكن مهمة تأمين مصر قد تمت بعد فقد كان على الحاكم الجديد أن يواصل العمل غربا وجنوبا . فجهز حملة

ضخمة لغزو النوبة عام ٣١ هـ سارت أربعين ليله من أسوان حتى بلغت دمقله فحاصرتها ، وضربتها بالمقاليع وهدمت كنيستها ، ولكن دون أن تستطيع أن تحرز نصرا كاملا اذ لم يتلاحم هؤلاء الاساود - وهو الاسم الآخر ، ولعله الاقدم ، الذى كان العرب يطلقونه على النوبه - مع العرب فى معارك شخصيه يستعملون فيها السيوف والرماح ، وأنما كانوا يقفون بعيدا ويشدون أقواسهم فينطلق منها وابل من السهام التى لاتضل طريقها الى أجسام العرب والى عيونهم بالذات . وصمد العرب . ولكن السهام لم تكف تنهمر عليهم فتدمى جسومهم ، وتفقأ عيونهم حتى عدت مائة وخمسون عينا مفقوءة من بينها عيون جماعة من كبار القادة : معاوية بن حديج ، سهم بن ابرهه بن الصباح ، حيويل بن ناشره . كانت المعركة مريرة بقدر ماكانت متكافئة . ولم يجد الشاعر العربى غضاضة فى الاعتراف بضراوتها حين قال :

لم تر عينى مثل يوم دمقله والخيل تعدو بالدروع مثقله

ولم يكن الصلح فى معركة أفضل منه فى هذه . وكان كل من الجانبين راغبا فيه اذ لم يكن الاستمرار فى القتال يعنى سوى مزيد من الخسائر دون نتيجة حاسمة . وتهادن الفريقان هدنة الندين ، وعقد عبد الله بن سعد مع قليدوروث ملك النوبة صلحا - ليس عهدا ولاميثاقا - يدفع النوبة الى العرب بمقتضاه كل عام ثلثمائة وستين رأسا من الرقيق الاصحاء الشبان من الرجال والنساء ، فى حين يحمل العرب اليهم كميات واعدادا معينة من القمح والشعير والعدس والثياب والخيل . وشيد العرب خارج دمقلة مسجدا يسجل وصولهم الى هناك ، وجعلوا الاعتداء عليه سببا من أسباب نقض الهدنة . ثم رجعوا الى مصر وقد أطلقوا على النوبة اسما ثالثا هو « رماة الحدق » .

صـــــلات :

لم يستطع العرب أن يخضعوا النوبه ، ولكنهم استطاعوا أن يأمنوا جانبهم ولم تدخل النوبة فى دائرة النفوذ الاسلامى ولكن

أصبح عليهم أن يتعاملوا مع الدولة الاسلامية . ففى كل عام كان يذهب ضابط مصرى الى بلدة القصر ، على خمسة أميال جنوبى أسوان ، ليتسلم الرقيق ويسلم المواد الغذائية وغيرها . وكان هؤلاء الرقيق اذا دخلوا مصر اعتقوا الاسلام ، وتحولوا الى موال وأصبحوا جزءا من جسم الأمة الاسلامية . وظلت عملية التبادل هذه قائمة حتى عصر المماليك أى لاكثر من ستة قرون بعد عقد الهدنة .

وتعبيرا عن حسن النية والمشاعر الوديه أهدى ملك النوبه منبرا الى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وبعث معه نجارا يسمى بقطر **Victor** وهم قوم ذوو خبرة عريقة فى شئون دور العبادة - ركبه فى مسجد عمرو الجامع . ولم يزل هذا المنبر النوبى هناك حتى زاد قرة بن شريك أمير مصر فى الجامع سنة ٩٤ هـ فنزعه ونصب بدلا منه منبرا جديدا .

ولما كانت مصالح العرب فى جنوب مصر ترتبط بصفة أساسية باستغلال مناجم العلاقى ، وهى متصلة بالبجة أكثر من اتصالها بالنوبه ، فقد ظل التبادل بين مصر والنوبه جد محدود . وبالرغم من هذا بدأ التجار المسلمون يتوغلون فى بلاد النوبه منذ وقت مبكر ، ويقال أنهم كان لهم مكان خاص لاقامتهم « ربض » فى مدينة علوة منذ القرن الثالث - الرابع الهجرى .

لم يخضع العرب بلاد النوبة عسكريا ولاسياسيا ، ولذلك أستطاع النوبيون أن يحتفظوا بديانتهم المسيحية . ولما كانت المسيحية قد دخلت هناك فى أواسط القرن السادس الميلادى على يد أساقفة يعاقبة عن طريق مصر فقد أصبح النوبه منذ اللحظه الاولى يعاقبة كالمصريين يقولون بوحدة اللاهوت والناسوت فى المسيح ولايطئون النساء فى الحيض ويغتسلون من الجنابة . كما كانت كنيستهم تعترف برئاسة بطريرك الاسكندرية وتتبعه واستمرت العلاقة بين الكنيسة النوبية والكنيسة المصرية قائمة فى العصر الاسلامى الا أنها دخلت تحت رقابة الدولة . وحدث فى عام

١٣٠ هـ أن تشكك والى مصر ، عبد الملك بن موسى بن نصير ، فى هذه العلاقة فقبض على رسول كنيسة دنقله الى مصر وأعتقله ، كما قبض على خاييل بطريرك القبط . ويزعم المؤرخون المسيحيون الذين ينفردون بهذه الروايه أن قرياقوس ملك النوبه غضب لذلك غضبا عظيما ، وخرج من بلاده على رأس مائة الف فارس نوبى فدخل الصعيد وقتل وسبى ، ثم تقدم فى الاراضى المصرية نحو الشمال حتى وصل الى بركة الحبشة خارج الفسطاط وأصبح يهدد العاصمة . وبادرت السلطات المصريه فأخلت سبيل البطريرك السجين . ولكن الملك النوبى . « بطل السودان » لم يرض بالعودة الى بلاده الا برجاء من البطريرك نفسه .

وفى سنة ١٣٢ هـ حارب مروان الحمار أخر خلفاء بنى أميه معركته الاخيرة الخاسرة فى مصر . وقتل فى بوصير الملق . وبالرغم من أن هدنة سنة ٣١ هـ بين المصريين والنوبة تلزم الاخيرين برد أباق المسلمين ومن لجأ اليهم من أهل الذمة فلم يجد عبد الله وعبيد الله ابنا الخليفة الصريع مهربا أبعد ولاملجأ آمن من النوبه يفران اليه بعد مصرع أبيهما وأنهيار دولتهما .

ولما كان النوبه محاربين مهرة فقد استعملهم أحمد بن طولون فى جيشه الكبير الذى أنشأه بمصر الى جانب غيرهم من الجند الروم . ولما بنى ابن طولون القطائع سنه ٢٥٦ هـ لاقامة جنوده وأتباعه كان للنوبة قطيعة « حارة » مفردة تعرف بهم .

وفى سنة ٣٥٢ هـ ، فى أيام كافور ، هبط النيل سريعا ووقع الغلاء بمصر فنسى النوبيون الهدنة ، وأغاروا على الصعيد يضرمون النار ويعملون السيف . ثم رجعوا وقد تركوا الناس نهبا للمجاعة والوباء .

وبعد أن استقر المقام بالمعز لدين الله فى القاهرة عام ٣٦٢ هـ وجه الى جرجس ملك النوبة بعثة تدعوه الى اعتناق الاسلام وتستقضيه الجزية المألوفة . وأستقبل الملك البعثة أستقبالا وديا

وآعطاها ماتريد ولكنه رفض التحول عن دين الاباء والاجداد . ومن الحق أن بلاد النوبه وعاصمتها دنقله ظلت تقف حاجزا يمنع توغل الاسلام الى جنوب القارة الافريقية حتى القرن السادس عشر الميلادى حين بدأت دعائم المسيحية تهتز .

شخصـــــيات :

منذ هدنة عام ٣١ هـ ظل يدخل مصر كل عام بصفة رسمية وبأنتظام حوالى أربعمائة من رقيق النوبة الى جانب الافراد الذين كانوا يفدون بمحض أرادتهم وكان طبيعيا جدا أن يؤدى هذا الى ظهور العنصر النوبى فى المجتمع المصرى وتأثره بهذا المجتمع وتأثيره فيه .

عاد المسلمون من معركة دمقله (٣١ هـ) ومعهم سبيهم منها . ولما وزع السبى على المقاتلين الذين اشتركوا فى المعركه كان من نصيب شريك بن طفيل العامرى - أحد اهل المدينه - رجل نوبى ضاع اسمه الاصلى ولم يعد يعرف بغير « سويد » الاسم العربى الجديد الذى أطلقه عليه سيده مراعيا فيه لونه فى أغلب الظن اعتنق سويد الاسلام ، وأستمع الى من أدرك من الصحابه ، وصلى الجمعة مع أمير مصر قيس بن سعد بن عبادة سنة ٣٧ هـ ، وروى الحديث ، وتزوج وأنجب ، وأصبح يكنى أبا حبيب ، ولاتنحصر أهمية سويد هذا فى كونه من أوائل من أسلم من النوبة وعاش فى مصر ، اذ انه يكتسب أهمية أكبر من ناحية أنه زود الفقه الاسلامى فى مصر بواحد من أكبر رواده هو ابنه يزيد بن أبى حبيب .

كان لعبد العزيز بن مروان الذى حكم مصر من ٦٥ - ٨٦ هـ بلاط كبلاط الخلفاء ليس فقط لانه آخ للخليفه القائم فى دمشق ولكن كذلك لضخامة وثراء الاقليم الذى يحكمه مستقلا بموارده . والى هذا البلاط وفد ، وفيه لمع عدد من مشاهير الشعراء منهم نصيب بن رباح الشاعر الاسلامى الفحل ، الاسود ذو الشعر المفلفل والعارضين الخفيفين والحنجرة الناتئة ، الذى ظل يمدح عبد العزيز

بشعره الجميل من مثل قوله :

فبشر أهل مصـــــر فقد أتاهم	مع النيل الذى فى مصر نيل
يقول فيحسن القول ابن ليلى	ويفعل فوق أحسن مايقـول

فينال جوائزه السنيه لينفقها في أعتاق أفراد أسرته وتحريرهم من العبودية ذلك بأن نصيبا كان عبدا نوبيا ينحدر من أبوين نوبييـن . ولم يكن نصيب يجيد الشعر فحسب ولكن كان ـ كقومه يبرى النبل ويريشـها ، ويرمى ويصيب . وكان لنبوغ نصيب الفنى الذى فتح له الطريق الى الطبقة الارستقراطية الحاكمة أهمية كبرى بالنسبة الى قومه النوبيين المقيمين فى مصر . حمله عبد العزيز ذات يوم على جمل . وألبسه مقطعات وشي . وأمره أن ينشد ، فاجتمع حوله السودان وفرحوا به ، فقال لهم : .
أسررتكم ؟
قالوا : أى والله . قال والله لما يسوءكم من أهل جلدتكم أكثر .
ومات عبد العزيز فى الطاعون الذى اجتاح مصر عام ٨٦ هـ فوقف نصيب يشيعه ويبكيه بأبيات حزينة منها :

لم يعلم النعش ماعليه من الـ	عرف ، ولا الحاملون ماحملوا
حتى أجنوه فى ضريحهـم	حيث انتهى من خليله الامل

فى عام ٥٣ هـ أنجب سويد النوبى الذى مر ذكره منذ لحظات غلاما أسود شديد السواد « كأنه فحمة » سماه يزيد . وأدرك يزيد آخر صحابى مات بمصر وعددا كبيرا من مشاهير التابعين سمع منهم الحديث وتلقى عنهم أحكام الدين . وكان ذكيا نجيبا فوعى ماسمع . ولم يلبث حتى نبغ وأحتل مكانه بين علماء مصر وفقهائها .

أرسى يزيد بن أبى حبيب النوبى الاصل أسس الدراسة الفقهية فى مصر . وعرف له الخليفة عمر بن عبد العزيز قدره فجعله أحد ثلاثة يتولون شئون الفتيا بمصر . وكان ثانى رجل فى مصر يبايع الخليفة الجديد حين تجيء البيعة له ، وبعده يبايع سائر الناس . وكان حليما عاقلا يقول : « انما غضبي فى نعلى ، فاذا سمعت

ماأكره أخذتهما ومضيت » . وكان له أثر كبير فى تخفيف حدة التيار العلوى بمصر وتقوية التيار العثمانى . وبالرغم من أنه لم ينعم بالحرية الا بعد أن أعتقه سيده ، وأن لونه كان يذكره دائما بأصله القريب ، فقد كان أحساسه بأسلاميته أقوى من أحساسه بنوبيته ، يتجلى ذلك فى قوله : « ليس بيننا وبين الاساود عهد ولاميثاق ، انما هى هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم شيئا من قمح وعدس ويعطونا رقيقا » . ويكفى أن نعلم أن الامام الجليل الليث بن سعد ليس سوى أحد تلاميذ يزيد بن أبى حبيب هذا ، وكان يذكره فيقول : « هو سيدنا وعالمنا » . وقد ظل ابن أبى حبيب حتى مات عام ١٢٨ هـ أوثق مرجع فى مصر لافى المسائل الفقهية فحسب بل فى الروايات التاريخية كذلك .

من منا لم يسمع بذى النون المصرى ، ثوبان أبى الفيض بن ابراهيم الحكيم ، الفصيح ، الزاهد ، الواعظ ، أوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا زعيم مذهب " الاتصال بالله " ودعامته الكبرى ، والذى أعطى التصوف شكله الدائم حين قرر أن حقيقة معرفة الله لايتوصل اليها الا بوساطة « الوجد » فأنكر عليه أهل مصر وقالوا : « أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة » ، وسعوا به الى المتوكل وأطلقوا عليه اسم « الزنديق » ، فسيق الى السجن فى يده الغل وفى رجليه القيد ، والناس حوله يبكون ، وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى وعطاياه : وكل فعاله عذب حسن طيب ثم ينشد :

لك من قلبى المكان المصون   كل لـــوم على فيك يهون
لك عـــزم بان أكـــون قتيلا   فيك ، والصبر عنك مالا يكون

ولد ذو النون هذا فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، فى أخميم من صعيد مصر ، من - وهذا هو المهم - أبوين نوبيين ، فكان نحيفا تعلوه حمرة . ويقال أنه كان يستطيع قراءة الكتابة الهيروغليفية على جدران الهياكل كان يدفعه الى ذلك اشتغاله بالصنعة أى الكيمياء .

ولما مات ذو النون فى الجيزة سنة ٢٤٥ هـ احتشد الناس ليكون لهم شرف تشييعه ، فحمل فى مركب حتى عدى به الى الفسطاط خوفا من زحمة الناس على الجسر ـ وكان جسرا خشبيا يمتد فوق صف من القوارب عبر النيل ـ ثم دفن فى القرافة .

لم تزل الامور فى مصر ، ابتداء من أول القرن الثالث الهجرى ، تتعقد وتسوء نتيجة للسياسة الغاشمة التى كانت الدولة تتبعها أقتصاديا واجتماعيا ودينيا . ولم تكن الثورة العاتية التى أشعلها جابر بن الوليد المدلجى ، أحد أبناء قبيله مدلج القوية ، فى الاسكندرية فى ربيع الاخر سنه ٢٥٢ هـ سوى واحدة من الانفجارات العنيفة التى لم تكن تنفك تدوى فى الحياة المصرية بين الحين والحين كرد فعل للسياسة المذكورة .

لم تكد ثورة المدلجى تشتعل حتى وجدت استجابة سريعة وكاملة من فئات الشعب المختلفة . فأيدها وانضم اليها وأسهم فيها مساهمة ايجابية القبط الذين كانوا يرزحون تحت وطأه أضطهاد دينى واقتصادى اليم ، والعرب الذين أسقطهم المعتصم من الديوان عام ٣١٨ هـ فطردهم بذلك من الطبقة الارستقراطية الحاكمة لينضموا الى صفوف الشعب الكادح ، والعلويون الذين كانوا هدفا دائما للمصادرة والسجن والنفى . اتفقت مصالح كل هؤلاء ضد الحكام الاتراك الذين انتهى بهم الامر الى السيطرة لاعلى مصر وحدها ولكن على الخلافة نفسها كذلك ، ورأوا فى جابر المدلجى رمزا لسخطهم فانضموا اليه .

كان ممن انضم الى المدلجى أبو حرملة فرج النوبى ـ وكان رجلا فاتكا يحتمل انه نفس فرج الاسود الذى لعب دورا مع عبد العزيز الجروى فى ثورته الكبيرة التى أمتدت من عام ١٩٩ حتى عام ٢٠٥ هـ ـ فعقد له جابر على عدة كور من الدلتا ليستولى عليها ويحكمها . ومضى أبو حرملة فى جيش عظيم فحارب قوات الدولة فى هذه الكور وهزمها ، وطرد العمال منها ، وتولى حكمها ومضى

يجمع خراجها بعد أن أتخذ من شرقيون (المحلة الكبرى) حاليا عاصمة له .

لما ظهر نجاح أبى حرملة أسرع اليه ثوار آخرون منهم أبن الارقط العلوى ، فجعلهم قوادا معه وأسند اليهم حكم بعض الاقاليم . ولكن يزيد بن عبد الله حاكم مصر التركى لم يلبث حتى تحرك لقمع هذه الثورات ، فسير قوات الدولة الى أبى حرملة . ودارت بين الفريقين معارك كثيرة عنيفة تبادلا فيها الهزيمة والنصر وكان شمال الدلتا مسرحا لها . وفى خلال ذلك ـ فى رجب ٢٥٢ هـ على وجه التحديد ـ وصل الى مصر من عاصمة الخلافة القائد التركى الكبير مزاحم بن خاقان على رأس جيش ضخم لاخماد ثورة المدلجى وأتباعه . وكان لهذه الخطوة أثرها الكبير فى أضعاف روح الثورة ، فاستسلم بعض الزعماء وتفرق كثير من المحاربين وكأنهم قد أيقنوا سلفا بعجزهم أمام قوات الخلافة . أما أبو حرملة فلم يلبث حتى وقع فى الأسر وأرسل الى الفسطاط فى جمع كبير من الاسرى فى رمضان من العام نفسه .

وبالرغم من اننا لانعرف شيئا من أخبار أبى حرملة ، الثائر النوبى الاصل ، فى الاسر ، فأن لنا أن نتوقع أنه لاقى فيه كل ضروب العذاب والهوان . وظل أبو حرملة يرسف فى أسره سبعة أشهر كاملة حتى أدركه الموت فى ربيع الاخر من عام ٢٥٣هـ ، وكأنما غاظ السلطات أنه افلت من قبضتها قبل أن تصلبه حيا فصلبته ميتا بالمصلى .

أما بعــــد :

فلقد كان دخول الاسلام القارة الافريقية عاملا جوهريا فى توجيه الحياة بها وتقرير مصير شعوبها ولئن كان النوبة قد أستطاعوا أن يستعصوا على الاسلام كعقيدة ، لبضعة قرون ، فلقد كان عليهم منذ اللحظات الاولى أن يكيفوا شئونهم وفق الاسلام كقوة سياسية هائلة متاخمة . وكان من مظاهر ذلك تمسح ملوكهم فى العروبة حين زعموا أنهم من حمير .

كما كان من مظاهره تلك الاحاديث التى صنعت خصيصا لهم وبناء على طلبهم لتخلع عليهم ميزات هامة . وتؤمن بالتالى وجودهم فى الجماعة الاسلامية انصياعا لموقف نبى الاسلام نفسه الذى نسبوا اليه أنه قرر أن النوبة خير الاعوان والاتباع حين قال : « خير سبيكم النوبة » . كما مدحهم بأنهم أصحاب عون ووفاء ومودة فى قوله : « من لم يكن له أخ فليتخذ أخا له من النوبة » ولم ينس النبى الكريم أن يوصى أتباعه بهم ـ مثلما أوصى بشعوب أخرى منهم القبط مثلا ـ تقديرا لمزاياهم العملية النافعة فى قوله : « أستوصوا بالنوبا (كذا) خيرا فأنهم يشدون الفتوق ، ويحفرون الخنادق ، ويطفئون الحريق » .

السموأل المصرى

١ ـ الأخوة الأعداء

الأرجح أن الثورة التى نشبت فى شمال شرقى الدلتا فى منتصف رمضان ١٩٤ هـ ، والتى سرعان ماأخمدتها قوات الدولة بقيادة السرى بن الحكم وآخرين ، انما كانت تأييدا للخليفة الأمين فى اجراءاته ضد أخيه المأمون ، هذه الاجراءات التى انتهت بخلع المأمون من ولاية العهد ، نقضا لما كان هارون الرشيد قد قرره قبل موته فى جمادى الآخرة ١٩٣ هـ ، وتعيين الطفل موسى بن الأمين بدلا منه فى ولاية العهد .

غير أن الأمور فى العاصمة المصرية ، الفسطاط ، سارت فى اتجاه آخر . فان السرى بن الحكم المذكور تفاهم مع قائد آخر فى الوضع ، واتفق معه على اطلاق اعلان التمرد على الخليفة الأمين والوقوف الى جانب المأمون ولى العهد المخلوع . ولما كان السرى ينتمى الى القوات العسكرية القادمة من فرسان والمقيمة بمصر كجزء من قواتها المسلحة الرسمية ، فقد كان طبيعيا أن يتوجه الى أفراد هذه القوات للدعوة الى خلع الأمين والمناداة بالمأمون . ولقيت دعوته استجابة محدودة فى هذا النطاق الضيق ، اذ كان الاتجاه العام لأهل مصر مواليا للأمين بما هو الخليفة الشرعى . غير أن الاعتداء على حق المأمون فى ولاية العهد من جهة ، ومكاتباته السرية الى اشراف أهل مصر من جهة أخرى ، أفلحت فى اقناع بعض كبار المصريين بالانضمام الى المأمون ، وتوسيع حركة التمرد على الأمين فى مصر بزعامة زرعة بن معاوية الخولانى وهاشم بن عبدالله بن حديج التجيبى

لنا الحق فى آن نتوقع ان هاشم بن عبدالله ـ وكان من كبار موظفى الدولة ـ اصطحب معه فى هذا الاتجاه الخطير ابنه الشاب هبيرة لا لكى يسانده ، وانما لكى يفتح آمامه باب الدخول الى الحياة العامة بكل ماتنطوى عليه من احتمالات السلطة والمجد واحتمالات الخطر والموت سواء بسواء . كان طبيعيا أن يكون هذا هو هدف الأب ليس فقط لأنه نفسه أحد رجال الدولة المسئولين ، وانما كذلك مواصلة لدور قبيلة تجيب بعامة وأسرة الحديجيين منها بخاصة ، هذا الدور الذى بدأ منذ اللحظة الأولى للفتح العربى لمصر (٢٠ ـ ٢١ هـ) ، والذى ظل مستمرا طوال القرون الثلاثة الأولى والذى لم تكف قبيلة تجيب وأسرة الحديجيين خلاله عن تزويد الحياة العامة فى مصر بل فى شمال أفريقية والأندلس ، بالعديد من الشخصيات البارزة المؤثرة مابين أمراء ، وقادة عسكريين وموظفين كبار ، وفقهاء وقراء ومحدثين ، وشعراء . ويمكن تطبيق نفس التفكير والأهداف على زرعة بن معاوية وابنه الحارث .

★★★

جابر بن الاشعث الذى ولاه الأمين امرة مصر (جمادى الآخرة ١٩٥ هـ) كان رجلا لينا محببا الى الناس من العامة والخاصة . وعلى الرغم من أنه ادرك خطورة الطريق الذى انتهجه السرى بن الحكم ثم تابعه عليه أولئك الزعماء من أهل مصر فى التمرد على الأمين الذى كان مايزال يحظى باعتراف أغلبية أهل مصر ، وماسيؤدى اليه ذلك بالضرورة من انقسام المصريين الى حزبين لامفر من تصادمهما فى حرب أهلية ... نقول ان جابرا على الرغم من ذلك لم يبادر الى اتخاذ اجراء حاسم يئد الفتنة فى مهدها ، وانما آثر ان يبعث الى زعماء التمرد ينهاهم عن ذلك ويخوفهم عواقب الفتن .

لم يكترث السرى بالتحذير الودى المتعقل من أمير مصر بل انطلق يواصل دعوته الى خلع الأمين والمناده بالمأمون . ولاشك

فى أنه ازداد تمسكا بدعوته ليس فقط لما أكسبه ذلك من شهرة وزعاماة فى مصر ، وانما كذلك نتيجة لما راح عسكر المأمون يحرزه من انتصارات على جيش الأمين فى خراسان (١٩٥ ـ ١٩٦ هـ) حتى لقد جعل المأمون يتصرف كخليفة حقيقى بعد أن سلموا عليه بالخلافة هناك .

إدراكاً لوزن مصر وأهمية دورها فى ذلك الصراع عنى المأمون بتشجيع الحزب المؤيد له فى مصر ودفعه الى الاقدام على عمل حاسم فكتب هرثمه بن اعين ـ احد قواد المأمون وكان يملك ضياعا بمصر ـ الى وكيله على هذه الضياع ، عباد بن محمد بن حيان ، يأمره أن يقوم فى خلع الأمين بمصر . لم يكن عباد ذا كفاءة عملية اقتصادية فحسب وانما كان كذلك ذا مهارة سياسية ومعرفة بالحروب . فلم يزل بأهل مصر يدعوهم الى خلع الأمين حتى اقتنع معظمهم بذلك . حتى اذا كان اليوم الثانى والعشرون من جمادى الآخرة (١٩٦ هـ) وجه الى الجند الدعوة لاجتماع فى المسجد الجامع مسجد عمروبن العاص بالفسطاط . وهناك قرأ عليهم الكتاب الصادر اليه من سيده هرثمة ، فاستجابوا له وأعلنوا بيعتهم للمأمون خليفة للمسلمين . وفى مقابل ذلك صرف عباد الحصيف لهم مكافآت مالية يسبيره من أموال سيدة هرثمة طبعا .

اذ بلغت الأمور هذا الحد لم يكن أمام جابر بن الأشعث ، أمير مصر المعين من قبل الأمين ، بد من أن يقوم بواجبه دفاعا عن الخليفة الذى يدين له بمنصبه . فتحرك فى نفس اليوم بقوات الدولة لضرب المتمردين والغاء قرارهم الخطير . غير أن الوقت كان قد فات ، والزمام قد أفلت ، واستطاع السرى بن الحكم ، المع زعماء التمرد ، أن ينزل هزيمة سريعة بجابر وقواته ، ويعزله عن إمرةمصر بصورة قبيحة لاتتفق مع وداعته ومسالمته ومحبته بين الناس فضلا عن مكانته كأمير للبلاد . ثم جاءت المناداة فى مصر بالمأمون خليفة فى الثامن من رجب (١٩٦ هـ) اجراء طبيعيا جعل من مصر أول ولاية فى الجزء الغربى من الإمبراطورية الاسلامية

تنضم الى المأمون ، خليفة المستقبل ، في الصراع الذى فرض عليه من قبل أخيه الأمين .

كان المأمون قد بلغ من ثقته بالنصر والظفر بالخلافة ، وأن المسألة باتت مسألة وقت ، مبلغا جعله لايتصرف كخليفة كامل السلطة فقط بل انه كذلك أطلق على نفسه لقب "امير المؤمنين" . لذلك ماأن علم بوقوع مصر فى قبضة حزبه حتى بادر الى تعيين عباد بن محمد أميرا على مصر توكيدا لسلطته عليها من جهة ومكافأة لعباد ، ناظر العزبة المحنك ، من جهة أخرى .

أما عباد ، وقد آلت اليه مقاليد الأمور فى مصر يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، فلم يجد بدوره أنسب من منصب صاحب الشرط (وزير الداخلية) يسنده الى الشاب هبيرة بن هاشم ذى النسب العريق من جهة ، وأحد أفراد قبيلة تجيب الضخمة القوية من جهة اخرى ، مكافأة له على مشاركته الايجابية مع أبيه فى حركة التمرد الخطيرة التي نجحت فى أن تضع مصر فى قبضة المأمون ، وفى أن تقفز بعباد الى منصب الامارة .

على الرغم من موقف الأمين البالغ الضعف والسوء فى بغداد العاصمة التى سادها القتال والفوضى ، وعلى الرغم من أنه خلع من الخلافة فى بغداد وأعيد اليها عدة مرات فى نفس السنة (١٩٦ هـ) ... نقول ان الأمين على الرغم من هذا رفض أن يستسلم لخروج مصر من قبضته فكتب الى ربيعة بن قيس ، رئيس قبيلة قيس القوية المقيمة بالحوف شرقى الدلتا ، يعينه أميرا على مصر . وكتب فى نفس الوقت الى ثلاثة آخرين من كبار زعماء أهل الحوف يأمرهم بمعاونة قيس فى تشكيل اكبر قوة عسكرية ممكنة للهجوم على الفسطاط ، واسقاط النظام الموالى للمأمون القائم بها ، وبالتالى الغاء ماتم من الاعتراف بالمأمون خليفة فى مصر .

وجد عباد فى حفر خندق حول الفسطاط أنجع وسيلة لحماية عاصمته من جهة وتجنب الصدام المباشر مع أهل الحوف

المحاربين ذوى البأس الشديد من جهة اخرى ، عبر هذا الخندق دارت فى خلال سنة ١٩٧ هـ ثلاث معارك ، لم تكن فى حقيقتها اكثر من مناوشات ، بين قوات عباد وقوات اهل الحوف الذين كانوا يعودون كل مرة الى بلادهم دون تحقيق هدفهم . فصمموا على وضع حد لهذا كله فى معركة شنوها على الخندق فى المحرم ١٩٨ هـ وتلقاهم فيها السرى بن الحكم على رأس قوات الدولة . وفيما كان القتال مستعرا ، والرجال يتساقلون صرعى من الفريقين وصلت الأنباء بأن محمدا الأمين قد قتل وبويع المأمون بالخلافة ، فتفرق أهل الخوف منكفئين الى ديارهم بعد أن لم يعد ثمة مبرر لمواصلة القتال .

٢ ـ الاختيار النبيل

لعل المأمون لم يكن يرى فى عباد بن محمد سوى مجرد ورقة عرف كيف يلعب بها ، فلما انتهت اللعبة الدامية لصالحه فقدت تلك الورقة قيمتها ، اذ أنه لم يلبث حتى صرف عبادا عن امرة مصر فى الشهر التالى . اما هبيرة بن هاشم فقد ظل يشغل منصبه المرموق كصاحب للشرطة . غير أن ذلك لم يدم طويلا ، فان أمير مصر الجديد ، المطلب بن عبدالله الذى وصل الى مصر فى منتصف الشهر التالى (ربيع الأول ١٩٨ هـ) لم يلبث حتى صرفة عن الشرطة بعد فترة لعله أستغلها فى الوقوف منه على خفايا البلد وحقائق الأوضاع فيه .

لابد أن الأوضاع كانت قلقة جدا فى مصر حينئذاك ، ذلك بأن المطلب لم يلبث حتى عزل صاحب الشرط الجديد الذى ولاه بدلا من هبيرة . ثم لم يلبث حتى صرف صاحب الشرط الجديد بثان ثم ثالث ، ليعود اخر الامر ويعيد هبيرة الى مكانه من جديد وكأنما لم يجد أكفأ ولاأفضل منه ليشغل هذا المنصب الحساس . ولابد أن ذلك قد ارتفع بأسهم هبيرة فى الحياة العامة ، ورسخ قدمه كرجل دولة لايمكن الاستغناء عنه بنفس القدر الذى يمكن به الاعتماد عليه . وان كان تعاقب خمسة رجال على منصب وزير الداخلية فى

خلال سبعة أشهر ونصف ، هي كل المدة التي قضاها المطلب في امرته الأولى على مصر ، لأكبر دليل على مدى اضطراب الأرض تحت قدمي السلطة في البلاد آنذاك .

كان المفروض أن يضع تربع المأمون على دست الخلافة في بغداد حدا للاضطراب والعنف في مصر . غير أن ذلك لم يتحقق . فقد عاد أهل الحوف الى التمرد على الدولة الجديدة ، وخاضوا قتالا ضد قواتها في الدلتا ، ولم يخلدوا الى السكينة الا عندما انتقل السري بن الحكم بقواته الى ديارهم وأقام بها فيما يشبه الاحتلال العسكري . كما رفضت مدينة الاسكندرية الوالي الذي عينه المطلب عليها . بل أنها هزمت اخا المطلب نفسه عندما سار اليها على رأس قوات من الدولة ليرغمها على الاذعان .

وكأنما لم يكن في هذا كله الكفاية ، فان السري بن الحكم انتهز فرصة هذه الامارة الجديدة ، امارة المطلب ليتخلص من خصومه السياسيين . فقد راح منذ اللحظات الأولى يوغر صدر المطلب على أهل مصر الذين وقفوا طويلا في صف الأمين ، وخص بالذكر منهم زعيما يدعى ابراهيم بن نافع الطائي كانت بينهما خصومة شخصية لم يتردد الأمير الجديد في تصديق دسيسة السري بن الحكم قائد أهل خراسان وزعيم الفتنة المنصرمة ، فأرسل في طلب ابرهيم الطائي المفترى عليه . لم يكن لدى ابرهيم ، فيما يبدو الوقت الكافي ليهرب من الفسطاط نجاة بحياته من المصير الذي لاشك ينتظره عند الأمير الجديد . فلم يكن أمامه بالتالي سوى الاستفادة من ذلك التقليد العربي العريق الذي كان شائعا في الجاهلية ثم أقره الاسلام وأبقى عليه لما ينطوي عليه من انسانية عميقة ونجدة نبيلة ، ذلك هو تقليد الجوار . لابد أن ابرهيم لم يتردد لحظة في أن يسرع الى دار هبيرة بن هاشم بالفسطاط يستجيره ويحتمي به من يد الأمير التي تبحث عنه بتحريض من السري . ولاشك كذلك في أن هبيرة كان عند ظن الطائي بنبله وحفاظه على قيم الاسلاف ، فلم

يتردد لحظة في ان يبسط فوقه رداءه ، ويمنحة جواره وهو يدرك تماما مايمكن آن يترتب على ذلك من عواقب لدى الأمير الذى عزله عن منصبه الكبير منذ قليل .

لم يكن رجال الأمير ، وقد تأكد أن آبراهيم لم يغادر الفسطاط ، في حاجة الى كثير ذكاء ليستنتجوا انه قد استجار احد أشراف العاصمة . لكن لعلهم كانوا في حاجة الى قدر اكبر من الذكاء ، ومن الوقت ايضا ، بل ربما من التحريات كذلك ليحصروا استنتاجهم فى اربعة باعيانهم من هؤلاء الأشراف . كان احدهم ـ وهذا هو المهم ـ هبيرة بن هاشم نفسه .

لم يتردد الأمير في القبض على الأشراف الأربعة المتهمين ، أو على الأقل المشكوك فيهم ، بمن فيهم وزير داخليته السابق هبيرة بل اكثر من هذا لم يكرم الأمير الذى لايعنيه الا سلطانه مثوى هؤلاء الرجال المرموقين ، فقد أودعهم السجن حتى يعترفوا على خصمه المطلوب . لم يعترف الرجال بشيء . لكن عيون الأمير التى لم تتوقف عن البحث ، وانفه الذى لم يكف عن التشمم ، سرعان ماastيقنوا آن طلبتهم قابع فى عقر دار هبيرة ينعم بالجوار والأمان .

هنالك ـ وذلك طبيعى تماماً ـ آخرج المطلب هبيرة من سجنه الى دار الامارة بالعسكر حيث يقيم ويحكم ، وواجهه بما تأكد لديه من وجود ابراهيم الطائى فى جواره وحمايته ، وامره ان يسلمه إياه فى الحال . اى موقف عصيب ! السيد العربى سليل الاباء الصيد ، ووريث قيمهم ، والحفيظ على اعزافهم ، والقدوة فى ذلك كله للجيل القائم من ابنائهم ... هذا السيد الزعيم المسئول مطالب الآن ان يهدر قيمة من أقدس قيم هؤلاء الآباء ، ويتنكر لعرف من اعرق اعرافهم ، فينكث فى العهد ، ويخون الوعد ويسلم المستجير . اى عار يراد على أن يجلبه على نفسه وولده بل على عشيرته وقبيلته ، بل على طبقته العربية كلها ! واى مصير ينتظره ! حينذاك سيصبح لاشك أحدوثة المجالس ، واضحوكة الناس ، سيزدريه الرجال ، وتتندر به النساء ، ويتصايح خلفه الاطفال فى الطرقات . سيسلقه

الشعراء بألسنتهم الحداد ، ويتداول فضيحته الرواة بالشفاه والأقلام . ستمتطى فضيحته متون الابل وصهوات الجياد مابين الاسكندرية واسوان ثم تأخذ طريقها غربا الى افريقية والاندلس وشرقا الى الحجاز والعراق ، وشمالا الى فلسطين والشام وجنوبا الى اليمن . ان هذا مالا يكون ، ولن يكون مهما كانت العاقبة .

أدرك الامير ـ وهو العربى كذلك ـ كل مادار بخاطر هبيرة الواقف امامه ثابتا شامخا رافضا ان يسلم جاره . غير ان ذلك لم يشفع لهبيرة لدى الأمير الذى تموج الأرض تحت قدميه بالاضطراب ويصر على اقرار النظام بأى ثمن . لم يكن فى جعبة الأمير سوى سهم واحد وأخير ، فليطلقه أذن وير مايكون . استدعى احد رجاله وأمره أن يشهر سيفه . وفى كلمات قليلة حاسمة خير هبيرة بين الحياة والموت ، فأما ان يتخلى عن جواره لابراهيم الطائى ، وأما أن يتنازل عن رأسه الذى بين كتفيه . لم تهتز شعرة فى جسد هبيرة ولم يطرف له جفن . لقد اختار وفرغ من الاختيار . فليمت وليبق أغنية للوفاء والشرف فى فم الزمان خيرا من أن يحرص على حياة فانية ، مهما طالت ، فى ظل الخزى والهوان .

ظل هبيرة الرجل عند كلمته . هنالك لم يجرؤ الأمير ، على الرغم من كل شىء ، على أن ينفذ وعيده . قد يستطيع أن يطيح بعنق هبيرة فى غمضة عين ، ولكنه لن يطيق الوقوف أمام ثورة بنى حديج وبنى تجيب ، بل وسائر أبناء الطبقة الحاكمة كلها . سيجد نفسه امام بركان هائج ، وفوق زلزال مائج . فسمح لهبيرة أن ينصرف فى سلام .

كل الاذان فى الفسطاط مرهفة تصيخ السمع وهى تتابع أنباء الموقف العصيب ، والتجربة الفريدة . الكل يتساءل : كيف سيتصرف هبيرة ، وماذا سيفعل الأمير ؟ الناس بين متفائل ومتشائم ، وبنوحديج وبنو تجيب يمسكون بأعنة خيلهم ، وأيديهم على مقابض سيوفهم . جو مشحون بالتوتر كأنه وتر قوس مشدود

انتظارا لانطلاق السهم . وأخيراً طلع هبيرة من باب القصر ، دار الامارة ، منتصب الهامة ، عالى الرأس ، ترتسم على شفتيه ابتسامة يمتزج فيها الأسف مع السرور . وبين التهليل والتكبير ، والصياح والهتاف وثب إلى صهوة جواده فى خفة الفارس ، ووقار السيد ومضى الى داره .

سعيد بن عفير الشاعر المؤرخ ،أول المؤرخ الشاعر ، الذى كان يعيش تلك ،وعقل الحقبة من حياة مصر ، ويرصد حوادثها بعين يقظى ، وأذن واعية ، وعقل حكيم ليسجلها بعد ذلك شعرا تردده الألسن ، وتتناقله الرواة ، ويستشهد به المؤرخون ... سعيد بن عفير هذا لم يكن لتفلت تلك التجربة المثيرة من وجدانه وفكره وقلمه ، فانطلق يقول مرتفعا بهبيرة بن هاشم ، السموأل المصرى ، درجات فوق درجة السموال بن عادياء اليهودى الذى كان حينذاك مضرب الأمثال فى الوفاء :

لعمرى لقد أوفى وفاق وفاؤه
هبيرة فى الطائى ، وفاء السموأل
وقاه المنايا ، اذ أتاه بنفسه
وقد برقت فى عارض متهلل
فما انفك مجبوسا ومطلب له
عليه قصيف بالوعيد المهول
فما زاده الايعاد الا توقرا
وصبرا ، ولم يخشع ولم يتفسكل
الى أن تجلت عنه أبيض ماجدا
كريم النثا فى المشهد المتدخل

مرت الأيام ، ونسى الأمير ابراهيم الطائى أو شغلته عنه حوادث أهل الحوف وأهل الاسكندرية الجسام ، وانتهز هبيرة بدوره الفرصة فيسر للطائى الافلات من العاصمة فى غفلة من رجال الأمير وعيونه . ووجد الطائى فى الصعيد ملجأ قصيا يستطيع أن يكون فيه بمأمن على حياته ، فانطلق اليه هاربا يستمتع بحرية

الحركة بعد أن طال احتباسه فى مخبأ جاره النبيل .

لم ينس الأمير خصمه الطائى فقط ، بل أنه اضطر كذلك الى أن يتناسى موقف هبيرة الصلب ازاءه وتحديه العنيد اياه . فلما توالت الاضطرابات ، ولم يجد استبدال أصحاب الشرط بعضهم ببعض نفعا فى السيطرة على الأمور وفرض الاستقرار ، لم يجد مفرا من الاعتراف لهبيرة بكفاءته ، والاقرار بمقدرته ، فأعاده الى منصبه الكبير كصاحب للشرط مسئول عن الأمن والاستقرار . بل اننا نحس أنه انما ولى احد أبناء عمومة هبيرة على الاسكندرية ترضية لهبيرة وتوددا اليه .

★★★

٣ - فى خدمة الواجب

لم يطل الأمر ، على أى حال ، بالمطلب ولابوزيره هبيرة فقد صدر أمر الخليفة بعزل المطلب عن امرة مصر فى شوال ١٩٨ هـ . واختار بدلا منه أميرا من أفراد أسرته الحاكمة ، اسمه العباس بن موسى ، ليوليه على مصر . ويبدو أنه كان يأنس فيه الحزم والشدة اللازمين لاقرار الأمور المضطربة فى مصر . لم يبادر الأمير الجديد الى تسلم مهام منصبه ، وانما أرسل ولده عبدالله نائبا عنه الى حين قدومه بنفسه ، وأرسل فى صحبته رجلا يدعى أبا بشر الحسن بن لوط الأنصارى . ويبدو أن العباس زود ولده ومساعده بتعليمات مشددة باصطناع أقسى اجراءات الحزم مع المصريين .

لم يكن اول أجراء لنائب الأمير الجديد ومساعده هو فقط عزل الأمير السابق المطلب بل القبض عليه كذلك وايداعه السجن . أما هبيرة صاحب الشرط فكان نصيبه العزل فقط من منصبه الكبير . وهنا يبدو أن ابن العباس أخلى المسرح فى هذه اللحظة لمساعده الأنصارى ليلعب عليه وحده المهمة الكريهة الملقاة على عاتقيهما معا .

ان لم يكن هذا الأنصارى فاجرا كأفحش مايكون الفجور فلا بد أن يكون أحمق كأغبى مايكون الحمق . ذلك بأنه لم يكد يستقر به

المقام فى مصر حتى راح يتحرش بالجند ويتحداهم المرة بعد المرة . ويبدو أن أولئك الرجال قابلوا ذلك منه بالحلم الكريم مما جرأه على أن يخطو خطوة جديدة ليس أكثر من خطرها سوى حماقتها ، ذلك بأنه اوقف صرف اعطيات (مرتبات) هؤلاء الجند . ان من يجرؤ على مثل ذلك مع الرجال المقاتلين ذوى البأس الشديد يهون عليه ان يأتى ماهو أشد مع المدنيين . هذا ماكان من ذلك الانصارى العجيب ، فقد تحامل على الناس وعسفهم واساء معاملتهم وظلمهم ، وراح ينذرهم بالويل والثبور وعظائم الأمور عندما يصل الأمير نفسه ، العباس بن موسى .

لكل فعل رد فعل مساو له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه . هذا القانون الطبيعى يصدق على عالم الاحياء وعلى المجتمع الانسانى صدقه على عالم الجوامد . لذلك كان طبيعيا ، بل حتميا ، أن تؤدى سياسة أبى بشر الأنصارى المتغطرسة المتحدية الظالمة ، بعد شهرين لا أكثر الى انفجار عنيف ضده تحالفت فيه الجماهير مع القوات المسلحة ، فاقتحموا السجن وأخرجوا من غياهبه أميرهم السابق ، المطلب ، وبايعوه بالامارة بالاجماع ، وخلعوا نائب الأمير ومساعده الأحمق فى منتصف المحرم ١٩٩ هـ

لم يعترف عبدالله بن العباس ولامساعده أبوبشر الانصارى بهذا التمرد فمايزال العباس بن موسى هو الأمير الشرعى على مصر ، ولن يفقد شرعيته الا اذا عزله الخليفة الذى اصدر قرار تعيينه . لذلك لم يفكرا فى الرحيل عن مصر منهزمين فاشلين ، وانما صمما على البقاء فى انتظار تطور الأحداث ورد فعل عاصمة الخلافة . لكن كيف يضمنان السلامة فى ذلك الجو المشحون ضدهما بالكراهية والعداء ؟ لم يكن أمامهما سوى استغلال ذلك التقليد العربى النبيل : تقليد الجوار وقد مارساه بحصافة ودهاء لعل الفضل فيهما يرجع الى ابى بشر الانصارى الداهية . ذلك بأن عبد الله بن العباس انطلق فاستجار عباد بن محمد بن حيان أمير مصر الأسبق وصاحب الضربة القاضية التى أخرجت مصر من

قبضة الأمين وألقت بها فى يد المأمون. اما الانصارى فقد تسلل الى جوار المطلب نفسه أمير مصر الجديد لاليضمن لنفسه الحماية فى اعلى مستوياتها فحسب ولكن ليصبح ايضا اشد مايكون قربا الى ذلك الامير الذى يضمر له الكيد . ما اشبه الأنصارى فى هذا بالحية التى تلتصق بجلد الذى يطعمها ويدفئها لتنهشه فى الوقت المناسب .

بعد خمسة أشهر ونصف تحرك العباس بن موسى من مكة الى مصر ليشغل امارتها التى كان المأمون قد أسند اليه منذ سبعة أشهر كاملة وكان طبيعيا ألا يتوجه الى العاصمة المصرية حيث يسيطر المطلب الذى يتمتع بتأييد الجند والجماهير وأن افتقد أعتراف الخليفة ولى الأمر ، وانما نزل الحوف ليحصل على معونة سكانه المقاتلين المتمردين فى تحركه العسكرى ضد المطلب من الخارج . وفى نفس الوقت راح يشكل طابورا خامسا يهاجم المطلب من الداخل . وأسند قيادة هذا الطابور الى اثنين من الد أعداء المطلب ، اولهما ابراهيم الطائى الذى كان المطلب يعتزم قتله لولا أن أجاره هبيرة بن هاشم وساعده على الأفلات الى الصعيد . وقد استطاع الطائى هذا أن يعود بعد ذلك الى المطلب فى أمرته الجديدة ويترضاه ، ويصبح واحدا من أعوانه . أما الثانى فلم يكن سوى الأنصارى الحية الكامنة فى ملابس المطلب الداخلية ، لابد أن عيون المطلب كانوا على درجة عالية من اليقظة ، اذ لم يلبث المطلب حتى اكتشف وثائق تثبت الاتصال بين هذين الرجلين الذين ظللهما بحمايته ومنحهما ثقته وبين العباس بن موسى الذى يعد العدة فى الحوف للانقضاض عليه ، هنالك لم يتردد فى أن ينزل بهما العقاب الذى يستحقانه . ووكل هذه المهمة الى صاحب شرطه المسئول الأول عن الأمن فى البلاد : هبيرة بن هاشم نفسه ، فى حين تكفل هو بأمر العباس الرابض فى بلاد الحوف ، فأرسل من دس له السم فى الطعام ـ فيما يقال ـ وفرغ من أمره فى جمادى الآخرة ١٩٩ هـ .

ماأغرب ماتتقلب الأحداث ، وتدور الأيام . هبيرة الذى بسط حمايته بالامس على ابراهيم الطائى ، وكان على وشك أن يفقد عنقه فى ذلك ، عليه اليوم ان يقتل هذا الطائى . لم يتردد هبيرة فى تنفيذ المهمة دون أدنى شعور بالخيانة أو حتى التناقض . لقد أجارهُ كسيد عربى ، لم يكن حينذاك يشغل أى منصب رسمى . أما الآن فهو رجل الدولة والمسئول عن الأمن ، فضلاً عن خيانة الطائى الصريحة . وسار هبيرة الى الطائى على رأس قواته فأجهز عليه . أما الأنصارى فكان لهبيرة معه شأن آخر ، اذ لم يشأ أن يقتله بيده ولا حتى بيد قواته ، وانما ترك هذه المهمة لخصوم الأنصارى القدماء : رجال القوات المسلحة ، فسلطهم عليه ولعلة كان في غنى عن تذكيرهم بماضيه معهم ، فقتلوه .

يبدو أن التخلص من العباس بن موسى ، ولو عن طريق دس السم له ، قد قوبل من المصريين بارتياح سجله الشعراء ، فى حين قوبل مصرع أبى بشر الأنصارى باستنكار الرأى العام الذى رأى فى ذلك اعتداء صريحا على تقليذ الجوار ، وان لم يحمل هبيرة ذلك الوزر بل حمله المطلب أمير مصر الذى كان قد منح جواره للأنصارى . ومثلما امتدح سعيد بن عفير وفاء هبيرة السموألى لجاره الطائى من قبل ، انطلق هذه المرة يهاجم المطلب ويلومه لغدره بجاره الأنصارى :

أرى كل جار قد رمى بجواره
وخان أبا بشر جوار ابن مالك
أمطلب : هلا منعت ابن غادر
وأديته قبل انسداد المسالك ؟
فيأخذ حبلا من سواك بعزة
ويمنعه من كل طبل ومالك
كحبل حوى أو كحبل ابن قحزم
وثيق العرى للمعصم المتماسك

وفى نص أخر لم يبق لنا منه سوى بيت واحد ، بكل أسف يوسع ابن عفير دائرة تشاؤمه وسخطه بحيث يتهم كل القحطانيين من أهل مصر ، لا المطلب فقط ، بخيانة العهد والغدر بالجار .

أخبر بنى قحطان فى مصر أننى

رأيتهم لايحفظون لهم أصرا

أيا كان الأمر فقد عاد المطلب فكافأ رجله القوى هبيرة بأن ولى ابنه محمدا حاكما على الاسكندرية ثانى مدن مصر وأجملها على الأطلاق .

٤ ـ الواجب الأخير

كانت متاعب جديدة ماتزال فى انتظار المطلب ، وكان مثيرها فى هذه المرة عبد العزيز الجروى الذى اتخذ من مدينة تنيس (شرقى موقع دمياط الحالية بقليل على البحر الأبيض المتوسط) مركزا حصينا له أنطلق يدبر منه الخطط ، ويعبىء القوات بهدف فرض سيطرته على أسفل الأرض (الدلتا) . سار السرى بن الحكم على رأس قوات الدولة لاخضاع الجروى والقضاء على خططه . ولكن هذا أفلح فى خداع السرى والقاء القبض عليه ، وحمله اسيرا الى معقله فى تنيس حيث ألقى به فى السجن .

لم يكن المطلب قد افاق بعد من انهزام قواته وأسر قائده السرى حين فوجىء بعبد الله بن موسى قادما من مكة فى المحرم ٢٠٠ هـ ليثأر لأخيه العباس من المطلب الذى كان قد اغتاله بالسم منذ وقت غير بعيد . كان طبيعيا ان يتحالف عبد الله بن موسى مع الجروى الذى لم يتردد فى المسير معه فى قوات برية ونهرية ضخمة الى الجيزة فى الشهر التالى مباشرة حيث اشتبكوا مع قوات الدولة فى معركة خاسرة انهزم بعدها الجروى الى الدلتا ، فى حين ولى عبد الله الأدبار الى مكة .

أصبح الجروى هو المشكلة الحقيقية التى تؤرق المطلب وتزلزل الأرض تحت قدميه ، فراح يعبىء كل قواه لحسم هذه المشكلة

حسما نهائيا . أحس الجروى بذلك ، وأدرك أنه لن يستطيع مواجهة المطلب عسكريا ، فلجأ الى الحيلة . أخرج أسيره السرى من محبسه ، واتفق معه على أن يسير الى الفسطاط حيث يزعم كذبا ـ يؤيده الجروى فى الدلتا ـ انه تلقى أمر الخليفة بتعيينه اميرا على مصر ، ويثور بالمطلب ويعزله . ماآن وصل السرى الى الفسطاط وأطلق كذبته حتى انضم اليه اتباعه الجند الخراسانيون ، فى حين رفض المصريون دعواه ولم يستجيبوا له . ولم يضيع المطلب الوقت فبادر بارسال قواته لأخضاع الخراسانيين وزعيمهم السرى . لجأ السرى الى داره فى حى الحمراء من الفسطاط متحصنا بها ، فى حين انطلقت القوات المصرية تشتبك مع الخراسانيين فى معارك متفرقة شملت كل نواحى العاصمة . ونجح المصريون فى الوصول الى دار السرى حيث يحتمى ، وضربوا حولها حصارا قويا .

كان هناك رجل واحد يستطيع أن يضع حدا لهذا كله ، فيخضع الخراسانيين ، ويقتحم على السرى داره المنيعة ، ويعيد الى العاصمة امنها واستقرارها . لم يكن ذلك الرجل سوى هبيرة رجل الدولة المخلص ، والمسئول الكفء عن الأمن . التقى هبيرة برجال السرى فى موقع بعد موقع من الفسطاط . كان القتال محتدما ، والخيل تضرب الأرض بسنابكها فيثور الغبار الكثيف يحجب ضوء الشمس ويحيل النهار الى ظلمة لايرى فيها الا السيوف وهى تخطف كالبرق فى ايدى الرجال ، وهبيرة القوى الشجاع فى مقدمة رجاله ، على صهوة جواده ، وسيفه يلتمع بين السيوف . أعمى الغبار الكثيف عينى فرس هبيرة فلم ير الحفرة الكبيرة بين قدميه فهوى فيها وهوى معه فارسه الكبير . بادر هبيرة يهم بالنهوض من الحفرة الخطرة فوجد نفسه عاجزا عن القيام . لقد كسرت رجله . انتبه الخراسانيون الى ذلك الفارس من أهل مصر الذى تردى به جواده ولم يستطع النهوض فخفوا اليه ، وفى مثل لمح البصر كانوا قد فصلوا رأسه عن جسده بضربة بسيف واحدة وهم لايعلمون فى

ظلمة الغبرة أنهم انما قتلوا هبيرة العظيم . وطاروا الى قائدهم السرى يلقون عند قدميه رأس أخذ الفرسان كبشارة بالنصر المقترب . لم يكد السرى يلقى نظرة على الوجه النبيل المعفر بالتراب ، المخضب بالدماء حتى كاد أن يصعقه هول المفاجأة . انه رأس زميله الكبير ، وصديقة القديم هبيرة بن هاشم الذى ربطت بينهما الحوادث الجسام منذ تشاركا وتحالفا على خلع الأمين والمناداة بالمأمون . أية كارثة ، وأى ثمن فادح يؤديه ليثب الى السلطة !

لم يملك السرى ، وهو المحارب المجرب نفسه من الجزع والهلع وربما من الصراخ والبكاء . وسرعان ماانتقل الخبر الى القوات المتصارعة فى الخارج ، فلم يكن جزعهم ـ مصريين وخراسانيين على السواء ـ بأقل من جزع السرى . أغمد الجميع سيوفهم ، وأدار كل فريق ظهزه للآخر راجعا الى مكانه بنفوس صدعها النبأ ، وقلوب اثقلها الحزن وعيون تفيض بالدمع

كانت هذه النهاية المفجعة لهبيرة نهاية فى نفس الوقت للمطلب الذى أيقن انه لم يعد له مكان فى مصر بعد ان انهار السند الشامخ الذى ظل قرابة عامين يستند اليه ، ويعتمد عليه . فطلب الأمان من السرى ، وأسلم اليه الأمر وغادر مصر (أول رمضان ٢٠٠ هـ) ليركب بحر القلزم (البحر الأحمر) متخذا طريقه الى مكة المكرمة تتبعه سخرية بعض الشعراء الموجعة .

سعيد بن عفير الشاعر المؤرخ الذى لم يتخلف لحظه عن مسرح الأحداث ، اهتز من الأعماق لمصرع هبيرة المأسوى مثلما اهتز من قبل لوفاته السموألى . قال يبكيه ، ويمجده ، ويسجل الموقف الأخير الذى اختتم هبيرة به حياته كرجل دولة أمين ، وفارس عظيم وسيد كريم :

لعمرى لقد لاقى هبيرة حتفه
بأفضل ماتلقى الحتوف السوارع

بأنف حمى لم تخالطه ذلة
وعرض نقى لم تشنه المطامع
عشية يستكفيه مطلب الذى
به ضاق ذرعا والمنايا كوارع
فما انفك يحميه ويجعل نفسه
له جنة حتى أحتوته المصارع
فلاقى المنايا فوق أجرد سابح
وفى الكف مأثور من الهند قاطع
فبينا يخوض الهول من غمراته
وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا
تقطر فى أهوية عن جواده
فصادفه حين من الموت واقع
فلم أر مقتولا أجل مصابه
على من يعادى والذين يجامع
من ابن حديج يوم أعلن نعيه
وقام به الناس راء وسامع
فولوا فلولا قد علتهم كآبة
وكلهم بادى التلهف جازع .

الأدب في معركـــه

كان العرب يمثلون في المجتمعات التي يفتحونها أرستقراطية - السيف والدم (الجنس) ويشغلون بالتالي قمة الهرم الاجتماعي . أما قاعدة الهرم فتتكون من الرقيق ، يعلوهم الذميون سكان البلاد الاصليون .

وكان يقوم نتيجة لذلك تناقض طبقي بين العرب وغير العرب ، وبين المسلمين وغير المسلمين ، وبين الاحرار وغير الاحرار . والاسلام النظرى يفتح الطريق أمام الحل السلمي لهذه التناقضات التي ظلت مصدر كل الحركات والتغيرات في المجتمع الاسلامي . فالرقيق يستطيع أن ينال حريته وغير المسلم يستطيع أن يدخل في الاسلام ، كما أن الاشتراك في الايمان بالاسلام يسوى بين المؤمنين بما يلغي مابينهم من فوارق ليكون منهم طبقة واحدة أشار اليها القرآن في الآية العاشرة من سورة الحجرات : « إنما المؤمنون إخوة » ، وفي الآية الثالثة عشرة من السورة نفسها : "أن أكرمكم عند الله أتقاكم" .

وكان المفروض أن يقف المسلمون الجدد ـ وهم من غير العرب طبعا ـ على قدم المساواة الكاملة مع المسلمين الاصليين أى العرب . غير أن ذلك لم يتحقق قط اذ ظل العرب متمسكين بعروبتهم الجنسية كعامل يحفظ عليهم بقاءهم كطبقة مغلقة (طائفة) لايستطيع غيرهم أن يشاركهم اياها .

وكل ماسمحوا به للمسلمين الجدد هو أن ينتسبوا الى القبائل العربية ، التي تتكون الطبقة العربية من مجموعها ، فيحملوا اسمها في صورة من التبعية تعرف باسم « الولاء » .

ثم أن الدولة رفضت - حرصا على مواردها - أن تسقط عن هؤلاء المسلمين الجدد - أو الموالى - لما تضخم عددهم - الجزية التى كان عليهم بحكم القرآن نفسه (التوبة : ٢٩) أن يدفعوها وهم ذميون . هذا الى أنه أصبح عليهم اداء الزكاة بما هم مسلمون . وهكذا لم يحقق أعتناق الاسلام وضعا طبقيا أفضل للموالى فلاهم دخلوا الطبقة العربية الحاكمة ولاهم بقوا فى طبقتهم التى ورثوا عضويتها ، بل أصبحوا يكونون طبقة قلقة فى المجتمع الجديد بالرغم من أنها كانت طبقة المستقبل ، وبذلك لم يحل اعتناق الاسلام التناقض بين العرب والاجناس الاخرى ، بل اعطاه صورة جديدة وظل هذا التناقض مصدرا لكل حركات الموالى السياسية والاجتماعية والثقافية . وعرفت ، مثلها مثل سائر المجتمعات الاسلامية ، هذا التناقض بين العرب والموالى ومانتج عنه من صراع وقد سجلت الروايات صورة نادرة لاحدى محاولات قبط مصر المسلمين لحل هذا التناقض بطريقة فريدة فى بابها .

الحرس - بفتح الحاء والراء - قرية مصرية كل مابقى لنا من أخبارها انها من شرقى مصر وأغلب الظن أنها من الاقليم الذى تشغله محافظة الشرقية . دخل سكان هذه القرية الاسلام مع الزمن مثلهم مثل معظم المصريين . ولكن يبدو أنهم كانوا يتمتعون بنشاط خاص ، فقد ظهر منهم فى القرن الثانى - الثالث الهجرى عدد من الشخصيات العلمية . فكان هناك كلب القضاعى الحرسى (ت ٢٠٧ هـ) الذى روى عن ، أى تتلمذ على ، الفقيه المصرى الكبير عمرو بن الحارث (ت ١٤٨ هـ) ، والقارىء المدنى العظيم نافع (ت ١٦٩ هـ) . وكان منهم - وهو أهمهم وأشهرهم - زكريا بن يحيي (ت ٢٤٢ هـ) المعروف بكاتب العمرى ، والذى تتلمذ على علماء أجلاء يكفى أن أحدهم العالم المصرى الجليل عبدالله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) . وقد يكون من المفيد أن نتأمل الاسم الكامل لهذا العالم الحرسى ، وهو : زكريا بن يحيى صالح بن يعقوب . فأن طوله يدل علي قدم دخول الاسرة في الاسلام . هذا

من جهة ، ومن جهة أخرى يلحظ أن أسمه واسم أسلافه هى أسماء أنبياء أو ، بتعبير أدق ، أسماء دينية لا تتعارض مع الاسلام ولكنها تخلو ـ ربما عن عمد ـ من الطابع العربى الخالص . كما كان هناك أحمد بن رزق الله بن أبى الجراح (ت ٢٤٦ هـ) تلميذ العالم المصرى الكبير يونس بن عبد الاعلى (ت ٢٦٤ هـ) . وكان هناك كذلك أبو بكر أحمد بن زكريا بن يحيى (ت ٢٥٤ هـ) نجل العالم المذكور آنفا .

كان هؤلاء الحرسيون يمارسون نشاطهم العلمى فى العاصمة ـ الفسطاط ـ حيث كان يقيم ـ فيما يبدو ـ عدد غير قليل من مواطنيهم ويشكلون جميعا تكوينا متميزا يعرف بآسم « آهل الحرس » . ويبدو كذلك أن أهل الحرس هؤلاء ـ علماء وغيرهم ـ أصابوا من النجاح والشهرة فى الفسطاط ما نبه اليهم أفراد الطبقة العربية الذين بدءوا يرون فيهم حالة جديدة من حالات الارتقاء الطبقى الذى كان ـ بما هو حركة أجتماعية مستمرة يهدد وضعهم كطبقة عليا متفردة بالسلطان ، ورأى العرب أن يبادروا الى القضاء على هذا النجاح الجديد الذى تحرزه الطبقة الشعبية . فأخذوا يتحرشون أهل الحرس ، ويؤذونهم وينكرون عليهم حقهم فى التفوق محتجين بأنهم ليسوا عربا ينتمون الى الطبقة الارستقراطية الحاكمه صاحبة الحق فى الاستئثار بكل أنواع التفوق ، ولكنهم قبط أى مصريون ينتمون الى الطبقة الشعبية المحكومة التى ليس لها أى حق فى التمتع بأى نوع من التفوق .

وتزعم حركة آضطهاد آهل الحرس ، أو ـ فى الاصح ـ الصراع الطبقى ضدهم ثلاثة من وجوه الطبقة أولهم : هاشم بن عبدالله التجيبى ـ من قبيلة تجيب القوية المتحضرة ، وهذا هو الاهم ـ أحد ذرية معاويه بن خديج (ت ٥٢ هـ) الذى كان من أبرز شخصيات الفتح العربى مثلما كان من آهم زعماء الارستقراطية العربية الفاتحة . وكان هاشم مازال محافظا على وضعه الطبقى الموروث وكان يلى وظائف الدولة الكبرى . وحدث أن عيره ابن

مسروق قاضى مصر (١٧٧ ـ ١٨٤ هـ) وكان قاضيا جزئيا عنيفا ـ بأنه ليس من كندة الملوك ، فغضب هاشم غضبا عنيفا وأقسم الا يحضر أمامه أبدا ، وفوض له أن يحكم بما يشاء فى ماله لمن يتظلم اليه منه . أما الثانى أبو رحب العلاء بن عاصم الخلانى فهو أحد رجال العلم والدين ، ولى القصص بجامع عمرو فى مقابل عشرة دنانير ـ وهو مبلغ غير صغير حينذاك ـ فى الشهر . كما كان أمام جامع عمرو ، فلما قدم الامام الشافعى (ت ٢٠٤ هـ) مصر سنة ١٩٨ هـ صلى خلفه فى المسجد الجامع فأعجب بصلاته وقال ، « هكذا تكون الصلاة . ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رحب ولا أحسن » . ولمنزلة أبى رحب العالية فى المجتمع المصرى استخلفه أحد الأمراء على حكم مصر سنة ١٩٣ هـ الى حين قدومه . أما الثالث فهو أبو الدهمج رياح بن ذوابة التجيبى الكندى الذى كان أحد شيوخ المؤرخين والشاعر المصرى الكبير سعيد بن عفير (ت ٢٢٦ هـ) .

هؤلاء الرجال الثلاثة اذن من أقوى القبائل العربية فى مصر وأغناها وأشدها أرستقراطية وهم أغنياء بالتالى . ثم أنهم مثقفون ثقافة عالية ، ويتمتعون بمكانة أجتماعية ممتازة . وقد أستاءوا من أولئك الحرسيين النشطين الممتازين الذين أستطاعوا بالعمل والمثابرة أن يحققوا لانفسهم حياة افضل من حياتهم التى بدءوها فى أعماق الطبقة الشعبية الكادحة المحرومة . ولسنا نشك فى أن الزعماء العرب الثلاثة فى شعورهم العدائى نحو هؤلاء الحرسيين الناجحين أنما كانوا يعكسون أحساس الطبقة الارستقراطية التى ينتمون اليها بخطورة هذه الظاهرة ـ ظاهرة تمكن أفراد الطبقة الشعبية من تحقيق الارتقاء الطبقى عن طريق العلم أو غيره ـ على وجودهم كطبقة . ولذلك لم يترددوا فى أن يشنوا باسم طبقتهم ، ودفاعا عن كيانها ومصالحها ، تلك الحرب النفسية القاسية التى لاتستند الى الدين الذى كانوا يعرفونه جيدا فى شىء وأنما تتخذ سندها الوحيد من حتمية الصراع الطبقى ويعد زكريا بن يحيى

الذى سبقت الاشارة اليه خير نموذج للارتقاء الطبقى الذى حققه أهل الحرس لانفسهم ، فقد آستطاع آن يرتفع من الحضيض الى العلم والسلطة والثراء . وقد جعله ذلك هدفا لنقمة الشاعر المصرى العربى الاصيل يحيى الخولانى الذى وصفه بأنه « صار بعد الذل للجور يرهب » وأنه « بعد قران العرى آصبح فاكتسى » ، وانه « بعد الحفا والمشى قد صار يركب » .

لم يستطع أهل الحرس الصبر على الاضطهاد ، وكانوا لابد لهم من أن يتخذوا آجراء مضادا . آى كان لابد من آن يحلوا هذا التناقض بينهم وبين العرب فلجئوا الى زعيمهم أو عميدهم فى العاصمة الذى لم يكن سوى زكريا بن يحيى يشكون اليه آنهم يؤذون ويطعن فى آنسابهم ، ويسألونه حتى متى يصبرون على هذا ... ولم يكن زكريا يجهل الموقف ، بل لعله كان قد روّى فيه طويلا ، ذلك بأنه قدم اليهم آعجب حل يمكن آن يخطر بالبال . فقد نصحهم لكى يتخلصوا من أضطهاد العرب بآن يتحولوا الى عرب : وأكد لهم آنهم يستطيعون تحقيق هذا المستحيل اذا جمعوا مبلغا من المال يقدمونه الى قاضى مصر فيسجل لهم سجلا يثبت لهم نسبا عربيا . فهل اقترح زكريا على مواطنيه هذا الاجراء العجيب لانه كان مألوفا حينذاك مثلما كان مألوفا فى مجتمعنا المعاصر ان تشترى الاسرة لنفسها « حجة » تثبت لها شرف الانتساب الى النبى ؟ آو أنه فعل ذلك آطمئنانا الى أمكان آتخاذ هذا الاجراء الشاذ فى عهد قاضى مصر الموجود حينذاك والذى كان هو نفسه يعمل كاتبا له حتى اشتهر بلقب « كاتب العمرى » كما ذكرنا من قبل ؟ وأيا كان الامر فمن كان هذا القاضى ؟

عبدالرحمن بن عبدالله العمرى ، آحد آحفاد عمر بن الخطاب الذى ينسب اليه ، فقيه مدنى ملكى ـ تلميذ مباشر لمالك (ت ١٧٩ هـ) ـ دخل مصر فى صفر ١٨٥ هـ قاضيا عليها من قبل الخليفة هارون الرشيد . وكانت له وجهات نظر خاصة فى كثير من وسائل الفقه والقضاء سرعان ماراح يطبقها فى مصر . فكان يميل مثلا

الى اتخاذ الشهود بمعنى أن يعين عددا من الافراد العدول تكون كل وظيفتهم هى أداء الشهادة على المتخاصمين . وقد ضرب رقما قياسيا فى عدد شهوده فاتخذ مائة شاهد وجعل عليهم رئيسا . ويلحظ انه اختار هؤلاء الشهود من أهل المدينة ـ بلده ـ بالذات ، من موالى قريش والانصار وغيرهم . على أن الجديد الذى لم يسبق اليه انه دون أسماء هؤلاء الشهود فى سجل خاص وأسقط سائر الناس ، فأصبح ذلك تقليدا متبعا منذ ذلك الحين . ولكى يضمن عدالة الشهود عين الفقيه المصرى الكبير أشهب بن عبدالعزيز (ت ٢٠٤ هـ) على مسائله ـ أى مهمة السؤال عن الشهود والتأكد من خلوهم مما يخل بالثقه فى شهادتهم وضم اليه فقيهين مصـريين كبيرين ايضا هما : يحيى بن عبدالله بن بكير (ت ٢٣١ هـ) ويحيى بن عبدالله بن حرملة . وكان مالك لايرى أن تشترط المرمة فى الاحباس (أى المبانى الموقوفة) ، ولكن تلميذه العمرى خالفه فى هذا الرأى قائلا : لولا المرمة ما بقيت الاحباس لاهلها ولذلك عنى العمرى بعمارة هذا النوع من المبانى فكان يقف عليها بنفسه ويجلس مع البنائين أكثر نهاره . وترميمه لمسجد عبدالله بالفسطاط مثال جيد لشغفه بالمبانى الاثرية وحرصه عليها ، مثلما أن القضية التى سجل فيها تجديد هذا المسجد مثال جيد لعقليته القانونية . والعمرى هو أول من عمل تابوت القضاء فى بيت المال لتودع فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له ، وقد أنفق فى بنائهأربعة دنانير فقط . وأتخذ لنفسه عددا من الكتاب كانوا جميعا من ذوى الكفاية العلمية ، وكان زكريا بن يحيى من أبرزهم . كما ذكرنا من قبل وكان الفقيهان المصريان عبدالله وهب وأشهب بن عبدالعزيز يحضران مجلسه . وروى عنه بعض علماء مصر . وكان يجلس للناس يقضى بينهم من الغداة الى الليل ، ولذلك وصفه الحارث بن مسكين قاضى مصر (ت ٢٥٠ هـ) بأنه « كان شعلة من نار » . ويقال ـ وهو قول مشكوك فيه الى حد كبير ـ أن النيل توقف فى سنة من السنين فخرج العمرى الى الرمل ، وبسط يده

ودعا وأبتهل ، فما عاد الا والماء يجرى فى أذياله .

على أن ذلك ليس كل شيء بالنسبة الى القاضي العمرى الذى لعله كان مزدوج الشخصية فقد كان يتزين ويسرف فى التزين . أتاه احدهم بعد قيامه من مجلس حكمه فأذا هو مضطجع وقد ترجل ، وصفر يديه وكحل عينيه واتشح بأزار معصفر وأدهن بملاب (على وزن سحاب وهو عطر أو الزعفران) ، ولا شك فى أن هناك علاقة وثيقة بين التجمل وبين كلفه الشديد بفن الغناء . فقد كان يشدو باطراف الغناء على مغانى اهل المدينة ، ويبرز كثيرا فى مجالسه ولا يتحاشى أن يقول : هذا غني به ابن سريج ، وهذا غنى به الدلال ، وهذا من جيد غناء الغريض . ولم يكن بمصر مسمعة الا ركب إليها يسمع غناءها وربما قوم ما انكسر من غنائها ويرى ذلك من الدين . ويضيف الراوية الذى دخل عليه فوجده فى كامل زينته أنه كان وهو فى حاله تلك يضرب بأصابع يديه بعضها على بعض ويقول :

كأنى من تذكر أم عمرو سرت بى قرقف صرف مدام

(القرقف / الخمر القوية . المدام ـ بضم الميم : الخمر) .

ونستطيع أن نزن هذه التصرفات اذا تصورنا تصدر فى مجتمعنا المعاصر عن رجل يكاد منصبه يوازى منصب وزير العدل . ومهما بدا ذلك السلوك متنافيا مع ما يجب أن يأخذ القاضى نفسه به من الوقار والاتزان فمن الممكن أغتفاره على حال من وجهة النظر الفنية الجمالية . على أن الذى لا سبيل الى اغتفاره بحال هو تصرفاته المالية المتسمة بالتفريط الشديد وعدم مراعاة اي قانون مالي أو أدبي . فقد عهد الى مساعده الكبير يحيى بن عبدالله بن بكير بالاشراف على أموال الايتام ـ أى دورا ـ ونخيلا ، وراح يستغلها ويدفع الى الايتام المستحقين من الارباح ما ينفقونه ويخصم مايصل اليهم من أصل أموالهم . فلما استهلكوا رءوس اموالهم ادعى يحيى الاصول وقال : هى لي . فخوصم عند صديقه

ورئيسه القاضى العمرى فقال : لا اراه ظلمكم بشىء هى اموالكم استهلكتموها .

وكانت القبائل العربية فى الفسطاط تقيم سباقا بين خيلها فى يوم يعرف "يوم الرهان" . وحدث مرة أن تدخلت أحدى القبائل المتسابقة "قبيلة يحصب" بطريقة غير مشروعة لتحول نتيجة السباق فى صالحها . فغضبت القبيلة الاخرى "قبيلة مراد" وأقتتلت القبيلتان وأنضم الى كل منهما فريق من الناس حتى كاد الموقف يتحول الى حرب أهلية مما اضطر الوالى الى الركوب بنفسه الى موقع المعركة والمحاجزة بين الفريقين . ثم كلف القاضى العمرى بالنظر فى الخلاف والفصل فيه . وكانت يحصب تعرف مفتاح القاضى فأتوه بأموال عظيمة . فحكم لهم بجائزة السباق التي لم تكن سوى الفرس المسبوق نفسه . وفى ذلك كله ما يعطينا الحق فى أن نرتاب فى اهتمامه بترميم المبانى الموقوفة وتجديد مسجد عبدالله الذى أنفق عليه ألف دينار . وسوف نرى كيف هاجم الشعراء القاضى العمرى من هذة الثغرة هجوما قاسيا . أما الرأى العام فى مصر فلم يجد أوجع فى التعبيرات عن ذمة القاضى الفاسدة من أن يطلق عليه أسم « أبى الندى » تشبها له بأبى الندى اللص مولى بلى ، الذى خرج سنة ١٩١ ـ ١٩٢ هـ فى نحو من الف رجل يقطع الطريق بمنطقة ايله ومدين ، واغار على قرى الشام ، وبلغ هو وعصابته مبلغا عظيما من النهب والقتل .

وأيا كان الامر فهذا هو القاضى الذى نصح زكريا بن يحيى مواطنيه اهل الحرس بالاعتماد عليه فى الحصول على الجنسية العربية الشريفة تخلصا من القبطية التى تجر عليهم اللعنات .

شكل أهل الحرس لجنة منهم لمباشرة هذه القضية الهامة وبدأت اللجنة فجمعت من الحرسيين ستة آلاف دينار ـ وهو مبلغ يدل على ثراء الحرسيين ونجاحهم العملى ـ ثم توجهت الى القاضى العمرى ـ الذى لاشك فى أن صديقه زكريا بن يحيى عميد أهل الحرس كان ة، فاتحه فى الامر ـ وعرضت عليه مطلبها

مشفوعا بالمبلغ الكبير . وبالرغم من حب العمرى الشديد للمال وأستخفافه فأنه لم يجسر على اتخاذ هذه الخطوة بصفة مباشرة . ولذلك نصح أعضاء اللجنة بأن يحصلوا أولا على أذن بذلك من الخليفة نفسه .

ووافق أعضاء اللجنة ، وقرروا السفر الى بغداد ، ولكنهم فضلوا أن يتزودوا بسند قانونى يسهل مهمة اقناع الخليفة بأصدار امره العالى الى قاضى مصر بأتخاذ الاجراءات اللازمة لاثبات الجنسية العربية لاهل الحرس فماذا يفعلون ؟ ذهب اثنان من أعضاء اللجنة ـ ولعلهما فعلا من قبل فى محاول سابقة ـ الى ناسخ يدعى عبدالكريم القراطيسي « كان يضع الخطوط على نظيرها » أى يزورها ، فدفعا له الف دينار وماكان اكثر الاف الدنانير معهم ـ فى مقابل ان يزور على لسان قاضى مصر الاسبق المفضل بن فضالة (ت ١٨١ هـ) حكما بأثبات أنساب أهل الحرس الى حوتكة بن اسلم بن الحاف ين قضاعة . ثم توجها الى متولى ديوان المفضل حيث تحفظ الاحكام فدفعا اليه الف دينار اخرى ليودع ذلك الحكم الديوان.فلما تم لهما ذلك شدا الرحال الى بغداد . وسرعان ماعرفا طريقهما الى بلاط الخليفة حيث أنفقا مالا عظيما للوصول الى الخليفة وعرض قضيتهم على مسامعه مؤكدين ان هناك قاضيا سابقا قد اصدر حكما رسميا بعروبتهم ولم يكن المفضل هناك ليطعن بالتزوير وفى كل حال فأن هذه الورقة الى جانب الدنانير الذهبية ، كان لها اثر فعال فى نجاح مساعى الرجلين وكتب الخليفة الى قاضى مصر يأمره بالتسجيل لاهل الحرس .

لم يعد أمام العمرى مايخافه فشمر عن ساعده وشرع يتخذ الاجراءات الرسميه لمنح أهل الحرس الجنسية العربية . غير أن القاضى المدقق لم يشأ أن يكتفى بحكم زميله . بل أراد أن يقوم بواجب التأكد بنفسه من صحة الدعوى فدعا الحرسيين الى اقامة البينة عنده على انسابهم ولم يكن شىء أسهل من ذلك على أهل الحرس فالدنانير الذهبية متوفرة ، والشهود الذين يحبون الدنانير أكثر توفرا وسرعان ماوجد أهل الحرس ، الذين يعرفون دائما الطريق الى مايريدون ـ الشهود المناسبين فى أهل الحوف الشرقى وأهل الشرقية وجماعة من بادية الشام لم يجدوا جميعا مانعا من أن يحضروا الى الفسطاط ، ويمثلوا أمام القاضى الجليل ويقسموا ، بالله العظيم أن أهل الحرس عرب خلص كاللبن الصريح . قد نستطيع تفسير اقدام هؤلاء الناس ـ وهم عرب ـ على تلك الشهاده الزور بأنهم بداه جفاة لايعنيهم سوى الدنانير ولكن بم نفسر موقف رجل لم يكن عربيا فحسب ولكن من أشراف العرب أى من الطبقة الارستقراطية وكان يملك فندقا فى الفسطاط وشغل أبناؤه مناصب الدوله الكبرى وكان ـ الى هذا كله ـ من نفس قبيله قضاعه التى يريد أهل الحرس الدخول فيها ، وهو حوى بن حوى بن معاذ العذرى (ت ٢٠٠ هـ) هل يمكن أن نرى فى موقف حوى اشارة الى اتجاه تقدمى لايقيم وزنا لهذه العصبية الجنسية التى تشكل مخالفة صريحة للنظرية الاسلامية ؟ ربما . وأيا كان الامر فأنه بالرغم من رفض شهادة حوى لمنازعة كانت بينه وبين صاحب المسائل فأن الشهود الباقين كانوا كافين جدا لاقتناع القاضى

العمرى اقتناعا قانونيا بعروبة أهل الحرس وامكان اصداره حكما بذلك ، فأسجل لهم سجلا بتثبيت أنسابهم الى حوتكه .

لقد وقعت المعجزه ، وتحقق المستحيل ، وأصبح الفلاحون المصريون ـ القبط ـ عربا ، ومن قضاعه . واخيرا أستطاع اهل الحرس أن يتخلصوا من ماضيهم الطبقى اللعين الذى ظل يطاردهم كالشبح . وأن لهم أن يتربعوا مع السادة العرب على قمة الهرم ، يتحدثون معهم في مهام الامور ويتبادلون معهم العلاقات المختلفة ، ويلقون فى خلال ذلك بنظرات التعالى والزهو على زملائهم السابقين الذين مازالوا يرزحون عند القاعدة . آه ! ولن يستطيع هاشم بن حديج ، ولا أبو رحب الخولاني ولا أبو الدهمج بعد اليوم أن يتحرشوا بهم أو يؤذوهم او يعيروهم بأصلهم القبطى الذى أفلحوا فى أن يبتروه كما يبتر الذنب . لقد تساوت الرءوس . صحيح أن الناس ـ بعض الناس ـ سيظلون يذكرون الماضى زمنا ، ولكنهم لن يلبثوا حتى ينسوا ، بل لن يلبثوا حتى يزولوا ولايعود أحد يعرف سوى ان اهل الحرس عرب اقحاح من قضاعه . ياسلام ! والفضل لمن ؟ لصديقهم العزيز القاضى العمرى ـ بعد الدنانير طبعا ـ فلازموه وأحاطوا به يتقدمهم عميدهم زكريا بن يحيي يغدون عليه اذا غدا ويروحون اذا راح ، وهم يرفلون فى نسبهم العربى الجديد ، ويزهون بجنسيتهم الجديده التى تتلألأ على هاماتهم كالتيجان .

لما لم يكن أعتناق أهل الحرس الاسلام ونجاحهم فى ظل النظام الجديد كافيا لحل التناقض بينهم وبين العرب بل على العكس أدى الى قيام تناقض جديد أشد حدة ، فقد أضطروا الى ذلك الحل الشاذ لعلهم يتخلصون من هذا التناقض ويحصلون على الاستقرار الاجتماعى والطمأنينة النفسية . غير أن هذا الحل الجديد قد أدى بدوره الى تناقض جديد فقد كان يشكل سابقة شديدة الخطورة على الطبقة العربية يؤدى السكوت عليها الى فتح الباب أمام تكرارها الى مالا نهاية مما يؤدى بالضرورة الى أختفاء العرب كطبقة آخر

الامر . ولذلك هبت الطبقة العربية ، وقد أصابها الذعر ، تهاجم القاضى العمرى وأهل الحرس وزعيمهم زكرياء بن يحيى ، وتعارض الحكم الصادر وتعمل كل ماتستطيع لوقف تنفيذه ، ولعب الأدب دورا بارزا فى المعركة ، فلمع ثلاثة من الشعراء المصريين من ذوى الاصل العربى هم : يحيى الخولانى ، معلى الطائى ، طاهر القيسى . ونستطيع أن نحس الذعر الذى أصاب العرب فى صيحة يحيى الخولانى :

الاقم فانْدب العربا ⠀⠀⠀ وبكّ الدين والحسبا
ولاتنفك تنعى العدل ⠀⠀⠀ لما بان فاغتربـــا

كما نستطيع أن نستشعر دهشة العرب ازاء هذا التصرف الجرىء فى قول يحيى أيضا .

ومـن أعجـب الاشيـاء أن عصابـة
مـن القبط فينـا أصبحـوا قـد تـعـربـوا
وقـالـوا : أبـونـا حـوتـك ، وأبـوهـم
مـن القبـض علـج حبلـه متـذبـذب
وجـاءوا بـاجـلاف مـن الحـوف فـادعـوا
بـأنـهـم منـهـم سفـاهـا وأجلبـوا
الالـعـن الـرحمـن مـن كـان راضيـا
بـهـم رغمـا مـادامـت الشمس تـغـرب

وكان طبيعيا أن يركز الشعراء هجومهم على القاضى العمرى سبب البلية كلها فأنطلقوا يهجونه ويعددون عيوبه . قال يحيى الخولانى يصف ركوبه لسماع الغناء الذى كان يصاحبه موكب من أهل الحرس :

مـر بنـا راكـب علـى فـرس
يـامـن رأى هـريـدا علـى فـرس
قـد كشـف الخـف مـن ضـلالتـه
فـى عصبـة مـن مسـالـم الحـرس
يقـدمـه خـالـد ويتبـعـه
لـوط قـران الكلبيـن فـى مـرس

فقلت : من ذا اللعين ؟ قيل
أبو الندى غدا مسرعا الى عرس
كيما يرى قينة ذكرت
تشدو بصوت يخال كالجرس
أصبح فى المخزيات منغمسا
وليس فى غيرها بمنغمس

وقال يحيى أيضا يذكر شغفه بالغناء والموسيقا الى جانب تعاطيه الخمر :

لقد أحدث قاضى السوء
فى فسطاطنا عجبا
يظل نهاره يقضى بغير
العدل منتصبا
ويسهر ليله لسما
عه القينات والطربا
ويشربها معتقة
عقارا تشبه الذهبا
ويعجبه سماع العو
د والمزمار ياعجبا
فيا للناس من قاض
يحب اللهو واللعبا

وقال معلى الطائى يسخر من تظاهره بالتقوى ، ويصفه بالظلم واللصوصية ويذكر شغفه بالغناء ويسخر منه ويحرض على اغتياله

كم كم تطول فى قراتك
والجور يضحك من صلاتك
تقضى نهارك بالهوى
وتبيت بين مغنياتك
ليت الثلاثين التى تجزى
تقوم بمسمعاتك
فاشرب على صرف الزمان

بمـا ارتشيـت مـن الحـواتـك
أن كنت قـد الحقتهـم عـربـا
فـزوجـهـم بنـاتـك
فنكشفـن بمـا أتيـت
صـدور قـوم مـن مسـاتـك
وكـأننـى بمنيـة تسـعـى
اليك بكـف فـاتـك
أفقـرتـه مـن مالـه
بقضيبة ، أو لـم يـؤاتـك
لا تـعجلـن أبـا النـدى
حتـى تصيـر الـى وفـاتـك
أن المقـامـع تطلقـن
مـن الجحيـم الـى ممـاتـك
بـل لـو ملكـت لسـان أكثـم
مـا وصلـت الـى صفـاتـك

ولم يكن بد من أن يمد الشعراء هجومهم على القاضى العمرى حتى يتناول أهل الحرس ومعاونيه فى القضاء . وقد وصفوهم أساسا بأكل أموال اليتامى

قال يحيى الخولانى : ـ

كـم فقيـر كـان قـد مـولـه
بـالمـواريـث التـى كـان منـح
زكـريـا وكبيـش منـهـم
والمـدينيـون أصحـاب البلـح
فـأفـادوا الـدور فضـلا بـعـدمـا
كلـب الفقـر عليـهـم والـح
كـم يتيـم قـد حـووا أمـوالـه
وشـهيـد عـادل كـان جـرح

وقال يحيى أيضا يهجو العمرى ويذكر أصحابه :

تصيـر أمـوال اليتـامـى جـوائـزا
لاصحـابـه حتـى استقلـوا وأتـربـوا

كبيش ، وطلق والقريرى منهم
وخالد ، والجعدى ذو الفقه أشهب
وما أبن بكير دونهم ، وسراقه
وسابق لاتنساه ذاك المعذب
وفى حكم ، والمطرفى عجيبه
وما إن أبو يعقوب عنها مغيب
وفى زكريا أية فأعجبوا لها
فقد صار بعد الذل للجود يرهب
وبعد قران العمر اصبح فأكتسى
وبعد الحفا والمشى قد صار يركب
وغير الالى عددت ممن نسيته
رجال كثير منهم يتعجب

وكان نصيب حوى العذرى الذى خان طبقته أن قال فيه يحيى الخولانى :

ياليت أم حوى لم تلد ذكرا
أوليت أن حويا كان ذا خرس
كسا قضاعة عارا فى شهادته
لله در حوى شاهد الحرس
شهادة رجعت ، لو أنها قبلت
لالحق الزور منها العير بالفرس

هذه هى أهم ، ان لم تكن كل ، الاشعار التى بقيت لنا عن هذه المرحلة من تلك المعركة الطبقية النادرة التى كانت الفسطاط ميدانا لها فى التسعينات من القرن الثانى ، ولسنا نشك فى أن هذه الابيات التى سجلها صاحب « الولاة والقضاة » ليست سوى نماذج مختاره من شعر كثير جدا القى به فى أتون المعركة حينذاك . ويلفت النظر أن الشاعر المصرى الكبير سعد بن عفير (ت ٢٢٦ هـ) ، الذى كان شاعر الطبقة العربية الاول والذى وقف شعره على تأييدها والتغنى بقيمها ـ والفخر بها ، قد اخلد الى الصمت فى المعركة الحاضرة ولسنا نجد تفسيرا لذلك سوى دقة موقفه فهو من أصحاب القاضى العمرى وخاصته مثلما هو عربى . ولذلك كان لا مفر له اذا تكلم من أن يضحى أما بطبقته واما بصديقه العزيز . فأثر الصمت ليحتفظ بهما كليهما ثم اننا نتساءل : هل لزم اهل الحرس الصمت المطلق فى هذا الجانب القولى من المعركة ؟ أو لم يكن لهم شعراء يتبنون

قضيتهم ويدافعون عن موقفهم ؟ أو لم يستطيعوا حتى أن يشتروا بعض الشعراء بدنانيرهم الطائلة التى كانت تصنع المعجزات ؟ نحن نرجح أن شعرا مالم يقل في هذه المعركة دفاعا عن أهل الحرس ، ذلك بأن الشعر كان ينتمي طبقيا الى العرب بما هم أصحاب الطبقة الحاكمة السائدة التى تستطيع أن تعطى وتمنع والتى تصطنع التقاليد السلوكية التى كان الشعر كفن يتغنى بها على أنها مثل عليا ، هذا الى أن الشعر لم يكن يستطيع فى تلك المرحلة التاريخية أن يتصور أن يتخذ موقف الدفاع أو حتى العطف على الطبقة الشعبية التى كان أفرادها يوصفون بأنهم " لاناس " في حين أن الموالى « اشباه الناس » أما العرب فهم « الناس » .

وأيا كان الامر فلنواصل السير مع المعركة .

بلغ القاضى العمرى فى موقفه من اهل الحرس ذروة الاستخفاف بالقانون واستغلال النفوذ ؛ واساءة استعمال السلطة واصبح لابد من وضع حد لحكم هذا القاضى الذى قضى على الثقة فى القانون ، وشوه العدالة ، وجعل الطريق الى الحقوق ملتويا قذرا مظلما . واخذ المصريون يفكرون في العمل على عزله . ولما كان الخليفة وحده هو الذى يملك سلطة تعيين القاضى وعزله فقد كان على المصريين الاتصال به وعرض الامر عليه ولكن من يقوم بذلك ؟ من يعلق الجرس فى رقبة القط ؟ من يذهب الى الخليفة ـ وما أدراك ما الخليفة ـ ليقول : ان احد رجال دولتك الرجل الذى وقع عليه اختيارك لاقامة العدل فينا رجل فاسد متعفن مما يدل على انك لا تدقق فى اختيار الرجال ؟

تطوع القراء أى العلماء بالقرآن وحفاظه ، للقيام بهذه المغامرة المجهولة العواقب فخرج نفر منهم « احتسبوا فى خروجهم الى هارون » أى وضعوا أرواحهم على أكفهم ، وشكوا الى الخليفة ما يفعله العمرى فيهم . وبدلا من أن يأمر الخليفة بالتحقيق فى الشكوى قال : أنظروا فى الديوان كم لى من وال من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وفحص الموظفون السجلات فلم يجدوا أحد يعمل فى خدمة الدولة من ذوية عمر سوى هذا القاضى المشكو . وبالرغم من أن هارون كان على علم بصلابة عمر فى الحق وشدته مع المنحرفين حتى انه أقام الحد على ابنه نفسه لما شرب الخمر بمصر وانه كان يقيمه على حفيده هذا لو ادركه .. بالرغم من ذلك اتخذ هارون ازاء المصلحة العامة موقفا عاطفيا تماما ، وقرر كنوع من الوفاء لذكرى عمر العظيم ان يبقى على القاضى الفاسد فى منصبه ، وصاح بالقراء المصريين : انصرفوا ، فوالله لاعزلته أبدا .

تحطمت ارادة الجماهير على صخره ذلك القاضى المنحرف الذى زاده هذا النصر أمعانا فى أنحرافه . على أن هارون لم يلبث حتى مات فى جمادى الاولى ١٩٣ هـ ليخلفه أبنه محمد الامين . ولما كان الامين يفضل أنفاق وقته فى المتع على أنفاقه فى معالجه شئون الحكم فقد فوض أموره الى الفضل بن الربيع (ت ٢٠٨ هـ) حاجب والده الرشيد ووزيره . وترامت سيرة القاضى العمرى الشاذه الى الوزير الجاد ، ولعل المصريين واصلوا السعى لديه فلم يتردد فى استصدار مرسوم بعزله . وصدر المرسوم بعد سنه كامله من موت الرشيد (جمادى الاول ١٩٤ هـ) . وحمله من بغداد الى مصر موظف خاص . ولم يكد ذلك الرسول يعلن النبأ فى مسجد مصر الجامع حتى عمت موجه هائله من الفرح ، وتكاثف الناس حوله يدعون ويثنون ، ويهللون ويكبرون ، فقد تخلصوا أخيرا بعد تسع سنوات كاملة وشهرين أثنين من القاضى الذى عبث بهم وبحقوقهم ولم يتمالك أحدهم نفسه فقال ـ ربما من أبيات أكثر :

بنعمة الله ورأى الفضـــل
نحىّ عن الحكم عدو العـدل
هذا سوار لرسول العـــزل

ولكن أغلب الظن أن هذا السوار لم يتجاوز نطاق الوعد الشعـرى . وأيا كان الامر فبهذا يبدأ الفصل الاخير من المهزلة التى لعب بطولتها القاضى العمرى .

من المفارقات ان قاضى مصر الجديد ، هاشم بن أبى بكر البكرى (ت ١٩٦ هـ) ، كان من ذرية أبى بكر الصديق . ولاشك فى أنه كان يعرف كل شىء ، بل لعله كان مزودا بتعليمات معينه . وقد بادر أهل مصر الى الالتفاف به ، وأطلاعه على كل مافعل القاضى العمرى وأعوانه ، وطالبوه بأن يرد اليهم حقوقهم المسلوبة . وتزعم هذه الحركه الانتقاميه أبو رجب العلاء بن عاصم الذى أشار على القاضى الجديد بالقبض على سلفه وأعوانه وحبسهم والتحقيق معهم . ولم يتردد القاضى البكرى لحظه ، فقبض على

القاضى العمرى ، وسجنه وقيده وطالبه بما صار اليه من الاموال والاوقاف وأخذ البكرى بما زعمه المصريون من أن جمله ماكتسبه العمرى فى فترة ولايته القضاء عليهم مائه الف (دينار طبعا)، فطالبه بها . كما تتبع البكرى أصحاب العمرى كلهم وسجنهم . وأسقط كل من شهد لاهل الحرس فلم يرجع أحد منهم عند أحد من القضاء . وكان نصيب يحيى بن عبد الله بكير من هذه الاجراءات التطهيريه كبيرا . فقد بادر اليتامى الى القاضى الجديد يشكون اليه أحتياله على أموالهم وأستهلاكه أياها فأخذه بالحساب ، فأنكر ، فأمر به فربط على عمود فى المسجد الجامع مقابل لباب أسرائيل ، ومناد ينادى : « هذا جزاء كل خائن » . وظل على ذلك أياما لايحل زباطه الا وقت كل صلاه . ولابد أن بكيرا كان يتمتع بقدرة كبيرة على الاحتمال ، اذ انه لم يقر بشىء بالرغم من هذا العذاب المهين ولم يستطع البكرى أن يصل منه الى درهم واحد ، فلما يئس منه خلى عنه .

استطاع القاضى العمرى أن يجد شخصا واحدا على الاقل يقف الي جانبه منذ أن بدأت أيامه السيئه ، ذلك هو عبد العزيز بن مطرف المطرفى الذى كان يرأس فرقة الشهود التى كونها من المدنيين وغيرهم ، والذى تناوله يحيى الخولانى بالهجاء فيمن هجا من أصحاب العمرى . وقف المطرفى الى جانب صديقه فى محنته ، فقام بأمره وضمن عنه مالا عظيما للبكرى . على أن البكرى لم يستطع أن ينال شيئا من المبالغ الطائله التى أدين بها العمرى لا لانه كان مصرا على عدم الدفع فحسب ، ولكن كذلك لانه لم يكن له مال بمصر ، فقد كان رجلا بعيد النظر يحسب حساب ذلك اليوم ويعلم أنه سيجىء حتما ، ولذلك سبق الى تهريب كل أمواله الى مدين ، أحدى مدن الحجاز على ساحل البحر الاحمر . فلما وقعت الواقعة شرع فى تنفيذ الخطة المرسومة ، فعمل على الهرب من السجن ومن مصر كلها الى حيث أمواله . وقد أفلح فى أن يفلت من السجن ويهرب . وأن لم يكن ذلك قد تيسر بفضل أصدقاء له لم

يتخلوا عنه ، فلا بد أنه بفضل أوفى الاصدقاء : الدنانير . وغاظ هربه خصومه الذين كانوا يمنون انفسهم بالتشفى منه غيظا أنعكس في شعر الشعراء . وقال يحيى الخولانى :

هرب الخائن ليلا فجنح وأتى أمرا قبيحا فافتضح
هارب تحمله ناجيـــة يصل الادلاج عدوا بالروح

أما طاهر القيسى ، وهو ثالث الشعراء الذين ذكرنا من قبل أنهم لمعوا فى قضية أهل الحرس ، فقد بقيت لنا أبيات قليلة من قصيده يبدو أنها كانت كبيرة قالها فى مدح أبى رحب العلاء بن عاصم الذى تزعم الصراع ضد أهل الحرس اولا ثم تزعم حملة الكراهية والانتقام من القاضى العمرى ثانيا ، قال طاهر يذكر كيف أن ابا رحب هو الذى أضطر أبا النـدى - أى القاضى العمرى - الى الفـرار :

ولقد كسوت أبا الندى بفعاله حربا يلوح قناعة المتقشب
وزخمته لما تخمط زحمة ضاقت عليه بها العراق ويثرب
ونجا لخوفك هاربا بخزاية وأخو الخزايه والشرارة يغلب

وصل العمري الى مدين حيث أحتمل أمواله ، وأتفق مع مجموعه من رجال الباديه على أن يخفروه فى رحلته . ثم سار يقطع شبه الجزيرة من شمالها متجها نحو الشرق - وربما الى العراق - يتبعه هؤلاء الرجال . فلما وصل الى فيد ، شمالى شرق شبه الجزيرة ، خرج عليه جماعه من قبيلتى اسد وطى فأوقعوا به وأخذوا جميع ماحواه . ولم يغن عنه حراسه المأجورون شيئا ، كما لم يستطع هو أن يفعل أكثر من أن يشترى جلده بكل مامعه من هؤلاء البدو قطاع الطريق « فما تخلص منهم الا بحشاشة نفسه » . وهكذا أخذت الزوابع المال الذى جاءت به الريح . ووصل النبأ الى مصر ، ورأى الناس فى ذلك أنتقاما الهيا عادلا . وسجل الشعر شماتة الناس . قال يحيى الخولانى من قصيده طويله :

أن يكن أفلت منا سالما يوم ولى مسرعا حين هرب
فلقد وافى بفـيد عصبة يسعرون الحرب حتى تلتهب

وغسل المصريون أيديهم من القاضى العجيب ، والتفتوا ليزيلوا أهم أثر تركه بينهم وهو قضيه آهل الحرس .

بما أن المرسوم لايلغيه إلا مرسوم مثله فقد كان لابد من أستصدار مرسوم جديد يلغى المرسوم السابق الذى منح آهل الحرس حق التمتع بالجنسية العربية . وأخذ الزغيمان العربيان أبو رحب العلاء بن عاصم وهاشم بن عبد الله التجيبى هذه المهمة على عاتقهما . وكانت الظروف مواتية تماما ، فالخليفة الرشيد صاحب المرسوم الاول قد مات . والخليفه الجديد لايعنيه التفكير فى مثل هذه الامور . ووزيره الفضل بن الربيع قد أثبت أنه رجل حازم

منصف والقاضى العمرى قد ذهب الى غير رجعة . والقاضى الجديد قاض نظيف حاسم يريد أن يفعل مايستطيع لازالة أثار سلفه البغيضة حتى يعيد الي القانون هيبته والى العدالة قدسيتها .

قام أبو رحب وهاشم بن عبد الله بتشكيل وفد مصرى يسافر الى بغداد ويحصل على المرسوم المطلوب . ووصل الوفد الى بلاط الخليفة ، وذكروا مافعل العمرى في أهل الحرس ، وانه الحقهم بالعرب ، ونسبهم الى حوتكه بن آسلم بن الحاف بن قضاعة ، وأقتنع المسئولون بفساد هذا الحكم وعدالة مطلب الوفد المصرى فكتب الخليفه الى قاضى مصر بكتاب يقرر فيه مبدآ عاما هو « أنه لايمنح أحدا من غير العرب اللحاق بالعرب » ويأمره فيما يتعلق بأهل الحرس « أن يردهم الى ماكانوا من آنسابهم » . فرجع الوفد بذلك .

لم يكن كتاب الخليفه الى القاضى البكرى سوى وثيقه النصر للطبقه العربيه فى المعركه . وكان على القاضى آن يعلن المتخاصمين ويجلس للنظر فى القضيه . ولكن اذا كان القاضى العمرى لم يصدر حكمه باثبات الجنسية العربية لاهل الحرس الا بعد أن شهد بذلك لديه شهود ، فقد كان على القاضى البكرى كذلك الا يصدر الحكم بأن أهل الحرس ليسوا عربا بل قبط أى مصريون الا بعد أن يشهد بذلك شهود واذا كان الشهود فى المرة الاولى مجموعة من البدو المرتزقة فأن الشهود هذه المرة كانوا قوما من أهل القناعه والعداله يكفى أن كان من بينهم الى جانب عبد الله بن وهب ، وسعيد بن عفير اللذين مر ذكرهما ـ النسابة ، الاخبارى ، المؤرخ المحدث الذى روى عنه البخارى : سعيد بن مريم (ت ٢٢٤ هـ) .

نستطيع أن نتصور مسجد مصر الجامع (جامع عمرو) وقد غص بالجماهير المتطلعه من سكان الفسطاط والقاضى البكرى فى مجلسه يحيط به كتابه ، وبين يديه قد مثل الزعماء من العرب ومن

أهل الحرس . وفتح القاضى الجلسه ، وعرض القضيه وطالب كلا من الطرفين بالدليل على دعواه . اما اهل الحرس فقد قدموا اليه الحكم الذى اصدره سلفه العمرى بعروبتهم . وأما العرب فقد تركوا الامر للشهود الذين أجمعوا على « آن أهل الحرس من القبط ، وآن العمرى قضى فيهم بجور » . فنقض البكرى قضيه العمرى فيهم ، وأشهد على قضائه بردهم الى أصلهم من القبط ، وآخرج من تحت مصلاه مقراضا كان يخفيه لهذا الغرض فقطع حكم القاضى العمرى وهو يقول لاهل الحرس الذين يشهدون آنهيار كفاحهم ويتجرعون كأس الهزيمة المرة : « العرب لايحتاجون الى كتاب من قاض . أن كنتم عربا فليس ينازعكم أحد » . ولسنا نستبعد آن الشاعر معلى الطائى قد أنفجر فى نفس هذه اللحظة يصرخ بأعلى صوته بتلك الابيات القاسية :

يابنى البظراء موتوا كمدا ... وأسخنوا عينا بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم ... من بنى العباس طرا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم ... قبط مصر ، ومن القبط سفل
كيف ياقبط تكونوا عربا ... ومريس أصلكم شر الجيل ؟

أما زميله يحيى الخولانى فقد وجد من السعادة ماأوحى اليه قصيدة راقصة تتضمن أقدم مانعرف من شعر مصرى فى وصف الخمر . قال :

أشكروا الله على أحسانه ... فله الحمد كثيرا والرغب
رجع القبط الى أصلهم ... بعد خزى طوقوه وتعب
ودنانير رشوها قاضيا ... جائرا قد كان فينا يغتصب
أخذ الاموال منهم خدعة ... وتولى عنهم ثم هرب
أبلغ البكرى عنى أنه ... عادل فى الحكم فراج الكرب
قد أمات الجور فينا والرشا ... وأشاع العدل فينا فرتب
أنه قد كان يقضى بالهوى ... ويبيع الحكم جورا ويهب
واذا يخلو حساها مزه ... مثل عين الديك من ماء العنب
لم يعن عاصرها فى كرمها ... بسوى القطف وغمزا بالركب

فأتت كالشمس الا أنها　　كسيت فى دنها لــون ذهب
ماكفته رشوة ظاهــرة　　وقضايا جوركم فيها عــجب
أن أتى أعظم مايأتى به　　أحد أن صير القبط عــرب

ولم ينس طاهر القيسى أن يشيد بالدور الهام الذى لعبه أبو رحب العلاء بن عاصم فى الوصول الى هذه النتيجه العظيمه فقال :

ولقد قمعت بنى الخبائث عندما　　راموا العلا وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا الى آبائهــــم　　ونسبيب أصلهم الذى قد غيبوا
وتــــركتهم مثلا لكل ملصق　　نسبا اذا التقت المحافل يضرب

اما بعد ـ فهكذا انتهت معركة من معارك الصراع الطبقى فى مصر فى القرن الثانى للهجرة ، هذا الصراع الذى كان نتيجة حتمية للتناقض الطبقى الحاد فى المجتمع المصرى حينذاك ، والذى كان يدور فى حرية تامة بحيث يترك للاطراف المتصارعه آن تلجأ الى كل الوسائل وتستعمل كل الاسلحة التى تقدر عليها ، والذى انتهى أخر الامر الى نتيجته الطبيعية المتفقه مع قوانين البقاء ، فقد تنازل كل من الطرفين عما لابد من التنازل عنه لانه لم يعد يتفق مع متطلبات البقاء التى فرضها الاسلام فتنازل القبطى ـ أى المصرى ـ عن لغته ودينه ، وتنازل العربى عن عروبته الجنسيه وبداوته والتقى الاثنان معا فى منتصف الطريق حيث اختلطا وأندمجا وفنى كل منهما فى صاحبه ليصنعا كائنا حيا جديدا صالحا للبقاء فى البيئة الجديدة لانه يتمتع بالقدرة على الاستجابة الناجحة لشروطها الجديدة ، ذلك هو المصرى المسلم أى الشكل المتطور للانسان المصرى الذى كان عليه أن يواصل حمل رسالة الحياة بمفهومها المصرى فى الطريق الجديد الذى شقه الاسلام أمام التطور الانسانى .

لم تكن قضيه أهل الحرس (١٨٥ ـ ١٩٤ هـ) الحاله الوحيده ولا الاولى ولا الاخيره من حالات الصراع الطبقى فى المجتمع

المصرى الاسلامى المبكر ، فهى فى الحق ليست سوى حلقه من سلسلة طويلة متكاملة تكون فى مجموعها حركة تاريخية كانت تحدث كنتيجه حتميه للتناقض بين العرب والاجناس الاخرى .

ولم تكن أصداء هذه المعركه قد تلاشت بعد حين تفجرت فى الميدان قنبلة جديدة فى صوره قصيدة هامة لشاعر مصـــرى تناول فيها بالهجاء اللاذع والسخريه الاليمه عددا من هؤلاء الرجال ذوى الاصل المصرى الذين أستطاعوا أن ينجحوا أجتماعيا حين اعتنقوا الاسلام ، وأشتغلوا بالعلم وتفوقوا فيه ، وشغلوا المناصب القضائيه الهامه ، وأصبحوا من ذوى النفوذ والسلطان بعد أن كانوا هم أو أسرهم يمارسون الاعمال الوضيعه .

واذا كان الارتقاء الطبقى هو السبب العام غير المباشر لشن الهجوم على هؤلاء الرجال ، فان السبب الخاص المباشر هو أنهم كانوا محل ثقه قاضى مصر لهيعه بن عيسى الحضرمى (ت ٢٠٤ هـ) الذى أختارهم ليعاونوه فى مهمته الجليله الشاقه عن طريق الشهاده أو السؤال عن الشهود .

أما القاضى لهيعه نفسه فأنه رجل عربى ينتمى الى قبيله حضرموت وهى من أهم القبائل العربيه التى أستوطنت مصر ، وكان دورها فيها حضاريا آيجابيا ، فقد ظهر منها اعداد كبيره من الرجال الذين أشتغلوا بالعلم والسياسه وشغلوا مناصب الدوله الكبرى ـ ويكفى مثالا لذلك أن حضرموت ضربت رقما قياسيا فى عدد من ولى قضاء مصر من رجالها ففى حوالى قرن ونصف قرن (٨٤ ـ ٢٤٤ هـ) ولى قضاء مصر تسعه من الحضارمة أى بمعدل قاض واحد كل ثمانية عشر عاما . هؤلاء عدا من ولى القضاء منهم فى الفترة نفسها فى الاندلس وبرقه وفلسطين ودمشق وحمص . وكان لشعراء حضرموت كل الحق فى أن يعدوا هذا التفوق القانونى القضائى من مفاخر قبيلتهم الاساسيه . فقال أحدهم :

لقد ولى القضاء بكل أرض ... من الغر الحضارمة الكرام
رجال ليس مثلهم رجـال ... من الصيد الجحاجحة الضخام

وقال آخـــر :

يــاحضــرمــوت هنيئــا مــاخصصــت بــه
مــن الحكــومــة بيــن الــعجــم والــعــرب

فى الجاهليه والاسلام يعرفه أهل الرواية والتفتيش والطلب

وقديما عرف الخليفه الاموى الاول ، معاوية (ت ٦٠ هـ) ، لرجال حضرموت كفاءتهم فكتب الى أمير مصر يقول : " « لاتول عملك الا أزديا أو حضرميا فأنهم أهل الامانه » .

. . .

أما من الناحية الفردية فأن لهيعة بن عيسى خير نموذج لرجال قبيلته الممتازين . فهو عالم ، فاضل ، كفء . استخلفه أحد أمراء مصر على حكمها سنه ١٨٩ هـ . وولى قضاء مصر مرتين ـ الاولى سنة ١٩٦ هـ ـ والثانية سنه ١٩٩ هـ ـ قام فى أثنائهما بعملين هامين جدا ، أولهما أنه أعاد النظر فى أحباس ـ أى أوقاف ـ مصر كلها سواء كانت أهليه أو حكومية ، ففحصها وجدد الشهاده بها وحكم فيها ، أما العمل الثانى فهو أنه أعاد تعمير مواحيز مصر أى ثغورها وحدودها . فقد كان المتبع هو أن يقوم بحماية هذه المواحيز قوات مسلحة تتكون من أهل الديوان ـ أى جيش الدوله ـ ومن المتطوعين . وكان أفراد هذه القوات يتقاضون أعطياتهم ، أى مرتباتهم السنوية ، مره كل عام فى شهر أبيب من حصيلة أحباس النسبيل أى الاوقاف الموقوفة فى سبيل الله . وينبغى أن نلحظ أن المتطوعين والفقراء فقط من أهل الديوان هم الذين يتقاضون مرتبا . فلما نشب الصراع بين الامين والمأمون على الخلافه (١٩٦ ـ ١٩٨ هـ) أمتدت أثاره الى مصر التى انقسم أهلها الى معسكرين خاضا غمار حرب أهليه لم تتنه الا بمصرع الامين وفى خلال ذلك أضطربت أمور مصر أضطرابا عنيفا شغل السلطة الحاكمة عن الاهتمام بالحدود ، فأوقفت مرتبات القوات المرابطة هناك مما أدى الى تخليها عن مواقعها وترك تلك الاماكن الحساسه الخطره المنتشره من العريش شرقا إلى ليبيا ومراقية غربا بدون حمايه . ويبدو أن هذا الوضع كان يقلق القاضى لهيعه بن عيسى

فإنه لم يكد يلى قضاء مصر حتى بادر الى تشكيل فرق خاصه لحماية الحدود تتقاضى مرتباتها من حصيلة احباس السبيل التى كان يشرف عليها قاضى مصر بحكم منصبه . وكان لهذا الاجراء رنة فرح قويه عند الناس الذين لابد أنهم كانوا بدورهم يعانون أشد القلق وهم يعيشون فى بلاد مفتوحه . فأطلقوا على هذه القوات الجديدة اسم « فروض لهيعه » تخليدا لذكرى القاضى الذى أعاد أنشاءها (١) . ليس هذا فحسب ، بل أن الشعر قام ليسجل ذلك العمل الهام ، ويشكر صاحبه ، ويعبر عن فرحة الجماهير وشعورها بالاطمئنان . فقال الشاعر فراس المرادى :

لعمرى لقد سارت فروض لهيعة
الى بلد قد كاد يهلك صاحبه
الى بلد تقرى به البوم والصدى
تعاوره الروم العظام تحاربه
رشيد وأخنا والبرلس كلها
ودمياط والاشتوم تقوى يغالبه
لهيع لقد حزت المكارم والثنا
ومن عند ربى فضله ومواهبه
فقد عمرت تلك الثغور بسنة
تعد اذا عدت هناك مناقبه

وهكذا لم يكن فى ذلك القاضى ، الذى كان آخر القضاه الحضارمه التسعه بمصر ، والذى ظل على قضاء مصر حتى توفى سنه ٢٠٤ هـ ، مايعيبه اللهم الا ما يذكر من أنه كان معيانا أى حسودا حتى أن أحد زملائه كان يضع فى لحيته - وكانت كبيرة جدا - عوذة اذا خطب يوم الجمعة خوفا من عين لهيعة .

والذى يهمنا على أى حال هو أن لهيعه هذا حين ولى قضاء مصر شكل لنفسه هيئة خاصة من المساعدين تتكون من حوالى ثلاثين رجلا مهمتهم الكتابه له ، والشهاده عنده ، والسؤال عن الشهود الذين يحضرون للشهاده عنده . واكتسب هؤلاء الرجال من عملهم نفوذا ، فقد كانوا يستطيعون أن يحرموا من حق الادلاء

بالشهاده أى فرد يثبت لديهم انه آتى مايسقط عدالته . وقد حدث فعلا أن أسقطوا أكثر من واحد آتوا أفعالا تجرحهم . ومن آشهر ماحدث فى هذا الصدد أيقاف شهاده شيخ من اكابر أهل البصره يكنى أبا التمام . كان يقيم فى الفسطاط ، وكان حسن الجوار ، حسن المعامله كثير الصوم والصلاة باذلا للمعروف ، مظهرا لزكاة ماله ، ولكنه كان - على ماثبت لمعاونى القاضى لهيعه هؤلاء - قدريا أى من المعتزلة ، فبادر لهيعه الى آيقاف شهادته بالرغم من أنه كان يعلم الكثير عن فضل ذلك الرجل ، وبالرغم من أن وجوه أهل البصره - بالفسطاط ذهبوا اليه وذكروا من جمال أبى التمام وفضله وأكثروا من الثناء عليه . وكانت حجه لهيعة « أنه يكره أن يراه الله عز وجل أجاز شهادة قدرى » .

وحتى هذا الحد تبدو الامور طبيعية . ولكن الوضع يختلف حين نعرف أن هؤلاء الرجال الذين استعان بهم القاضى لهيعة ، ووكل اليهم الاجراءات القضائيه ، وعلى رأسهم سعيد بن تليد ومعاويه الاسوانى وسليمان بن برد كانوا من القبط ، أى كانوا من المسلمين المصريين أصلا ، وهكذا نجد آنفسنا أمام نفس موقف أهل الحرس فهاهنا كما كان هنالك رجال من صميم الطبقه الشعبيه قد أستطاعوا عن طريق أعتناق الاسلام أولا ثم الاشتغال بالعلم ثانيا أن يشغلوا الوظائف الهامه ، وأن يملكوا من السلطه مايستطيعون معه أن يتحكموا في الاخرين ولو كانوا من الاشراف . وفى كلمه أستطاعوا أن يحققوا ارتقاء طبقيا لاشك فيه فيرتفعوا من الطبقة الشعبية المقهورة الخاضعة المحكومة الى الطبقة الارستقراطية السائدة الحاكمة .

ويبدو أن تجربة أهل الحرس القريبة جعلت آشراف الطبقة العربية يحجمون عن آن يكرروا نفس أسلوبهم فى الصراع مع هؤلاء المسلمين الجدد ، فلم يتعرضوا لهم ولم يتحرشوهم ولم يؤذوهم كما فعل هاشم بن حديج والعلاء بن عاصم وأبو الدهمج الكندى مع اهل الحرس من قبل ، ولكنهم أكتفوا بأن يحاربوهم

أدبيا بسلاح الفن ، ولما كان الشعر حينذاك هو أكثر الفنون ذيوعا وأعظمها سلطانا فقد كلفوا ـ فيما يظن ـ الشاعر ابا شبيب أنيس بن دارم مولى تجيب ـ القبيلة العربية الارستقراطية ـ أن يهجوهم . وربما كان أبو شبيب قد صنع فى هذا الصدد شعرا كثيرا لم يبق لنا منه سوى قصيده يتيمه دلل الكندى صاحب الولاه والقضاه على فطنته كمؤرخ وذوقه كأديب حين حفظها لنا كامله . وهذه هى :

قبح الله زمانا رأس فيه ابن تليـــــد
بعد مقراض وخيط وابيرات حديـــــد
وأبو الزنباع خناق غراميل العبيـــد
بعد سيف خشبى وسهام من حديـــد
وأبن توراق الافانين البليد ابن البليـد
أبن بكار كراكير وغطاس الثريـــد
وأبو الروس المريسى أبن دباغ الجلـود
واللقيط ابن بكير نطفة الفدم الطريـد
وأبن سهم حارس الجيزه حلوان البريـد
عصبة من طينة النيل مناسى الجـنـدود
لبسوا بعد التبابين نفيسات البـــرود
لازموا المسجد ضلا لا من الامر الرشيـد
لحوانيت بنوهـــا بفناكل عمـــود
وتسموا وتكنـوا بعد جرجـه وشنـود
والاحوا بجبـاه من نطاح الحجـر سـود
تحت أميال طوال كبـر اطيل اليهـود
نصبوها كالمقاعيـد على روس القـرود
وتراهم للوصايـا وعدالات الشهـــود
فى مراء وجـدال وقيـام وقعـــود
وخشوع وأبتهـال وركـوع وسجـــود
وعلى القسمة أضـرى من تماسيح الصعيـد
وأشاروا للهدايا بأبـى عبـد الحميـد

***

لعل أول مايلفت النظر في هذه القصيده أن قائلها من الموالي ، اى انه ينتمى اجتماعيا الى نفس الطبقه التى ينتمى اليها الافراد الذين يتناولهم بالهجاء . وكان الطبيعى بحكم المصلحه المشتركه أن يقف فى صفهم ، ويدافع عن قضيتهم التى هى فى نفس الوقت ، قضيته ، غير أن الشعر كان ينتمى فى المجتمع المصرى وسائر المجتمعات الاسلامية في تلك العصور الى الطبقة الحاكمة ليس فقط لانه فن هذه الطبقه الاصيل ، ولكن كذلك لانه فن محترف . واذ كان الكسب المادى هو الهدف الاول والاخير للفن المحترف فقد ظل الشاعر العربي مرغما على أن يضع نفسه في خدمة الطبقة السائدة اقتصاديا وهى دائما الطبقه الحاكمه ـ فيتغنى بقيمها ، ويدافع عن وجهه نظرها ، ويهاجم خصومها . وهكذا ظل الشاعر العربى أسير اليمين التقليدى لايخطر بباله ، بل لايستطيع على الاطلاق أن يتخذ موقفا يساريا ثوريا معارضا يدافع فيه عن الطبقات المقهورة ضد الطبقات القاهرة بل لقد كان الحلم الاكبر لكل شاعر هو أن ينجح فى أن يبيع مقدما سلعته الفنية لسيد أو وال أو امير أو خليفه يظل طول عمره بعد ذلك يسبح بحمده ويصطنع التبريرات الفنيه لكل أعماله مهما بلغ حظها من الخطأ وليس الشعر العربى الكثير جدا فى الشكوى وذم الناس والدهر سوى التعبير عن ضيق الشاعر العربي بحياه الحرمان القاسية التى يعانيها أفراد الطبقة الشعبية ورغبته القوية فى الفرار منها الى حياة الرغد والامان التى تتمتع بها الطبقه الارستقراطيه على يد واحد من أفرادها .

والزمان الذى يعلن الشاعر سخطه عليه فى مطلع قصيدته ليس شيئا آخر سوى الاوضاع الاجتماعية التقدمية التى هيأت لهؤلاء الافراد من مساعدى القاضى لهيعة أن يصعدوا من الحضيض الاجتماعى الى ابهه العلم والثروه والرئاسه فالارتقاء الطبقى فى رأى ذلك الشاعر المعبر عن وجهة نظر الرجعية الارستقراطية ظاهرة مرضية تشير الى وجود خلل فى البناء الاجتماعى .

ولاتتمتع الشخصيات المذكوره في القصيده بنصيب متساو من الشهره . فليس بين أيدينا معلومات واضحه عن غير سعيد بن تليذ الذى كان وثيق الصلة بالحياة القضائية فى مصر . فكان القاضى الفضل بن غانم الخزاعى (١٩٨ -١٩٩ هـ) يستدعيه اليه . ثم أستكتبة القاضى لهيعه أبن عيسى (١٩٩ - ٢٠٤ هـ) ، وجعله على مسائله ، وأمره بتجديد السؤال عن الشهود فى كل سته أشهر ، كما كان من شهود لهيعة وبطانته . ولما ولى عيسى بن المنكدر قضاء مصر (٢١٢ - ٢١٤ هـ) جعله على مسائله كذلك . أما أبو الزنباع فهو روح بن الفرج بن عبد الرحمن القطان (ت ٢٨٢ هـ) ، مولى الزبير بن العوام ، ممن التزم مذهب مالك وكان عالما فيه فقيها به ، مثلما كان أوثق الناس فى زمانه . ومما له دلالته الواضحه أن ينص فى ترجمة أبى الزنباع هذا على انه قد « رفعه الله بالعلم » . أما أبن بكير فهو يحيى بن عبد الله بن بكير (ت ٢٣١ هـ) ، الفقيه المصرى الكبير مولى بنى مخزوم ، صاحب مالك الذى روى الموطأ عنه سبع عشرة مرة ، كان من أوعية العلم مع الصدق والامانه ، ومن حفاظ الحديث ونقاده ، وممن سمع عنهم البخارى بمصر . وهو المرجع الاخير لقدر طيب من روايات الكندى . ولما أصبح من أصحاب القاضى العمرى (١٨٥ - ١٩٤ هـ) وخاصته ضمه الى صاحب مسائله وأمره باقامة من عرف منه ستر وفضل ، مثلما جعل اليه أموال اليتامى فاستغلها ثم أستولى على أصولها بعد أن سدد اليهم مبالغهم الاولى من الارباح وظل أبن بكير محتفظا بمكانته فى مصر فكان أول من تكلم فى المؤتمر الذى عقده أميرها عبد الله ابن طاهر فى الفسطاط سنه ٢١٢ هـ من كبار الفقهاء المصريين لانتخاب قاض لهم . وربما كان أبو الروس المريسى هو نفس معاويه بن عبد الله الاسوانى احد شهود لهيعه والذى إستطاع ان يصبح فيما بعد صاحب مسائل قاضى مصر ابرهيم بن الجراح (٢٠٥ - ٢١١ هـ) بعد أن أعطى ابن القاضى الف دينار . أما الباقون وهم : أبن توراق الافانين(٢) وابن بكار

غطاس ، وأبن سهم فلا نعلم عنهم أكثر مما ورد عنهم فى القصيدة .

ولكى يؤيد الشاعر دعواه فى عدم استحقاق هؤلاء الرجال ماوصلوا اليه من نجاح يكشف وضاعة اصلهم عن طريق الاشاره الى اعمالهم الاولى . واذا كان واضحا أن ابن تليد خياط ، فأنه ليس من الواضح تماما مايقصده الشاعر من أن أبا الزنباع كان له سيف خشبى وسهام من حديد . أن أبا الزنباع يوصف فى ترجمته بالقطان ، ولسنا نستطيع تحديد العلاقة بين الاشتغال ببيع القطن أو حتى غزله وبين السيف الخشبى والسهام الحديديه . أما أبو الروس فلعله كان يشتغل كأبيه بالدباغة . ولسنا ندرى أى عيب فى أن يكون ابن سهم من العاملين بالبريد فى الجيزه وأيا كان الامر فأن الخطيئة الكبرى لهؤلاء الرجال هى أنهم « من طينة النيل » . أى قبط أو مصريون لاتجرى فى عروقهم الدماء العربية النبيلة . كما أنهم ليس لهم أجداد أمجاد ينتسبون اليهم ، ويحفظون السلسلة التى تصلهم بهم ، بل أنهم ـ مثلهم مثل كل الاجناس غير العرب ـ يكتفون بالانتساب الى قراهم ماداموا « مناسى الجدود » .

★★★

ولما كان الارتقاء الطبقى هو جوهر المشكله فان الشاعر يسجل بعض مظاهره فقد أستغنى هؤلاء الرجال عن التبابين اى السراويل القصيره التى لايلبسها الا الفلاحون والفعلة وأصبحوا يرفلون فى البرود النفيسة ويضعون على رؤسهم القلانس الضخمة العالية مثلهم مثل كبار العلماء ، وتجاوز التغيير الثياب الى الاسماء نفسها ، فقد نبذوا أسماءهم المصريه المسيحية من مثل : جرجس وشنوده الى الاسماء العربية بل أنهم تمادوا فاتخذوا الكنى على عادة العرب الاقحاح . ولما كان الاسلام هو الذى فتح أمامهم الباب الى هذا الارتقاء الطبقى فأنهم يبدون أجتهادا واضحا فى ممارسة شعائره فهم يلازمون المسجد الجامع حيث يتعبدون على مرأى من الجميع خاشعين مبتهلين واذا سجدوا أطالوا حتى تتاثر جباههم .

وفى غير الصلاه يديرون فيما بينهم المناقشات العلميه الجاده الحادة فى أمور الدين ومسائل الفقه ومشكلات القانون .

غير أن الشاعر لايقنع بهذا الهجوم المعتدل فهو يتجاوزه الى الهجاء المقذع فأبو الزنباع خناق غراميل الغبيد (لعلها اشاره الى أصابته بالشذوذ الجنسى) ، وآبن توراق الافانين قد ورث البلادة عن آبيه وأبن بكير لقيط أتى سفاحا من رجل ضائع مجهول . ويبلغ هذا الهجاء الذروة عندما يصوغه الشاعر فى صور كاريكاتيريه تجمع بين قوة الفن وقسوة السخرية . فالمدعو غطاسا أصبح يجيد الغطس فى الثريد بعد أن كان المقصود غطاس التعميد . وهؤلاء الرجال لايسجدون عند الصلاه كما يسجد سائر المصلين ولكنهم ينطحون الحصر نطحا حتى تحدث ندبا أسود فى جباههم يتباهون به . وأغطيه رءوسهم تشبه قلانس اليهود ، وهم يبدون فيها كقرود تضع غرارات على رءوسها وحين يتناقشون ياتون بحركات كثيره مقصوده تقنع من يراهم بأنهم رجال ورعون جادون لا يعنيهم الا اقرار الحق وأيصاله الى صاحبه ، فى حين انهم لايحكمون لصالح أحد الا آذا قبضوا الرشوه التى يحبونها حبا جما ويرمزون اليها فيما بينهم بكلمه « أبى عبد الحميد » .

ولاتخطىء العين مافى القصيدة من روح مصريه مثل تسمية الرجل الصعيدى كبير الرآس بأبى الروس على مانفعل نحن المصريين حتى اليوم . ولم يجد الشاعر افضل من تماسيح الصعيد الضاريه يشبه بها هؤلاء الرجال فى جشعهم وشراهتهم للرشوة ولعل « أبا عبد الحميد » الذى يرمز به الى الرشوة كان اصطلاحا مصريا شائعا حينذاك مثل اصطلاح (أبى الندى) الذى كانوا يطلقونه على كل لص خطر .

وأيا كان الامر فلاشك فى أن هذه القصيدة وثيقة تاريخية بقدر ماهى أثر فنى بديع .

★★★

أما بعد - فنحن لاننزعم أن أصحاب القاضى لهيعه هؤلاء كانوا

شخصيات مثلى . فقد كانت لهم بلا شك عيوبهم . بل أن بعضهم كان له أخطاؤد الجسيمه (يحيى بن عبد الله بن بكير) . ولكننا لانستطيع آن ننكر من جهة أخرى أنهم كانوا . فى مجموعهم رجالا ممتازين حقا ولاأدل على ذلك من اختيار القضاة ـ وفيهم عرب أصلاء ـ أياهم وأعتمادهم عليهم ، وثقتهم فيهم . غير أن الصراع الطبقى ـ وهو ظاهرة طبيعية ومشروعة تماما ـ يستحل ـ بما هو صراع على البقاء ذاته ـ كل سلاح بما فى ذلك أنكار أى فضل للخصم . ولم يكن فى ذلك بأس كبير أبدا فالحياة دائما أعلم حيث تجعل رسالتها ، وهى تعرف جيدا كيف تنتخب بنواميسها الدقيقه الاصلح ، وتنفى الاخبث ، بحيث يكون النتيجه أخر الامر فى صالح العناصر القادرة على أن تحقق للحياة غايتها المتجددة من البقاء والارتقاء .

١) أصبحت هذه القوات تعرف بأسم فروض القاضى أبتدا من عام ٢٢٦ هـ بناء على أمر قاضى مصر ابن أبى الليث .

٢) الارجح أنه محمد بن عاصم بن جعفر بن تذرأق بن ذكوان بن بناق مولى المعافر (ت ٢١٥ هـ) وكان من أهل الصدق .

ابن المقفع المصرى

مدينه .

فى مركز الروضه ، التابع لمحافظه أسيوط، تقوم منذ آلاف السنين مدينه لم تنجح فى الاحتفاظ بالبقاء حتى اليوم فحسب ، بل أستطاعت أيضا أن تظل محتفظه بأسمها المصرى القديم : أشمون ، مع تغيير بسيط قضت به ظروف تاريخيه حولت هذا الاسم الى صيغه المثنى فأصبح : الاشمونين .

ولما كانت سياسه البطالمه تهدف الى " أغرقة " مصر ، فأنهم أطلقوا على المدن الرئيسيه أسماء يونانيه خالصه .. وكان نصيب الاشمونين من ذلك أن أصبح يطلق عليها " هرموبوليس مجنا "، أى : مدينه هرمز الكبرى .. ولكن هذا التغيير كان على الورق فقط ، أذ أن الاسم المصرى القديم ظل حيا على ألسنه الناس .. فلما سقط البطالمه سقطت معهم هذه الاسماء الدخيله التى الصقوها بالمدن الصاقا مفتعلا ، وواصلت الاسماء الوطنيه حياتها .

وفى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت الاشمونين ماتزال مدينه عامره آهله ، ذات بساتين ونخل كثير ، بل كانت ماتزال محتفظه بوضعها كعاصمه لهذه الكوره (الاقليم) التى تحمل أسمها فى الصعيد الادنى غربى النيل .. كما كان من أبنائها عدد من المشاهير ،

مــــؤلف :

فى أوائل العصر الفاطمى ، كان يجلس على كرسى أسقفية الاشمونين رجل فاضل من أبنائها يسمى ساويرس ، وأشتهر بأبن المقفع .. بدأ حياته كاتبا ثم أشتغل بالدين ، أحبه الخليفه الفاطمى

الاول المعز لدين الله (٣٦٥ هـ) ، وقربه اليه وجعله من الشخصيات الدائمه فى مجلسه .

ولما كان ساويرس رجلا ذكيا ، واسع الاطلاع ، يجيد العربيه .. فكثيرا ماكان ينتصر فى المناظرات والمجادلات التى كان يروق للمعز عقدها فى قصره .

وأنتج ساويرس رسائل ومقالات كثيره جدا تتناول كلها موضوعات لاهوتية وفلسفية .

كتـــاب :

على أن أهم مؤلف أنتجه ساويرس هو ذلك الكتاب الذى ترجم فيه للبطاركة الذين جلسوا على كرسى كنيسة الاسكندرية منذ أنشائها ، وهو كتاب تاريخ بطاركه الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة .

وعلى الرغم من أن الكتاب يتحدث أصلا عن أخبار الطبقة العليا من رجال الدين المسيحى ، فأنه يحتوى على كثير من أخبار الحياة العامه فى مصر وهى أخبار بالغه الاهميه وتكشف الكثير من حقائق العصر الذى تتعلق به .

تشكل لغه مؤلف هذا الكتاب ـ من حيث المفردات ، والنحو ، والاسلوب ـ وثيقة هامة فى مسأله أنتشار اللغة العربية بين سكان البلاد الاصليين من جهة ، ونشوء اللغه العاميه ـ أى اللهجه العربية الخاصة بمصر ـ من جهة آخرى .

أنتشـــار اللغة العربية :

استقى ساويرس معلوماته التى صاغ منها هذا الكتاب من وثائق مكتوبه باللغة اليونانية واللغة القبطية ، وجد بعضها فى ديارات مصر الكثيرة ، وبعضها الاخر فى أيدى الناس .. ولما كان

ساويرس ـ مثله مثل معاصريه ـ يجهل هاتين اللغتين ، فقد استعان بمن يعرفهما من زملائه من رجال الدين على ترجمه الوثائق الى اللغه العربيه :

يقول ساويرس فى المقدمه الثالثه لكتابه (ص ١٧) :

" وأنا ممن لايجب له أن يكتب بخط يده البائسه الفانيه شيئا من أخبارهم ، فأستعنت بمن أعلم أستحقاقهم من الاخوة المسيحيين ، وسألتهم مساعدتى على نقل ماوجدناه منها بالقلم القبطي واليونانى الى القلم العربى الذى هو اليوم معروف عند أهل هذا الزمان بأقليم ديار مصر لعدم معرفة اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم " .

وهذا الاعتراف الصريح ذو دلاله خطيره جدا .. فساويرس رجل يشغل منصبا دينيا يفرض عليه أن يظل متمسكا بلغته الاصلية ، ويكون آخر من يتخلى عنها .. فأذا وجدناه يجهل ـ أو فى الاقل لايجيد ـ اللغه القبطية ، وكذلك اللغة اليونانية التى ظلت قرونا عديده لغة مصر الرسمية والادبية ، كان ذلك دليلا لاشك فيه على أن هاتين اللغتين كانتا قد أنتهتا فى أواخر القرن الرابع الهجرى (أواخر العاشر الميلادى) ـ وهو القرن الذى عاش فيه ساويرس ـ الى درجه ملحوظه من الضعف ، بحيث أصبح أستعمالهما محصورا فى بيئه بعينها وفى قله من أفراد هذه البيئة .

على أن ساويرس لم يكن يعرف العربيه فحسب ، وأنما كان يجيد التعبير بها تعبيرا أدبيا فنيا يحمل طابع العصر الذى عاش فيه .. نلمس هذا فى القطع الادبيه التى قدم بها لكتابه .

من ذلك قوله فى المقدمة الثانية لكتابه " المجد لله باعث العلوم ومبديها ، وخالق الامور ومنشيها ، وصانع الخلائق ومكونها ، ومهدى من يشاء ومصطفيه ، ورافع من يختاره من عبيده صفوته وخلقه الصالحين وينتخبه ويرتضيه .. الذى يرفع من الارض مسكينا ، ومن المزبله فقيرا ، فيجعله ملكا على خلقه ، ومسلطا على تدبير عباده وبلاده ، وكرسى العز يورثه ليحكم فى الارض بالعدل ،

وبين الناس بالحق ، ليقمع القوى عن الضعيف ، وينقذ المظلوم من الظالم .. وذلك حكم الله وحكمته التى لايفهمها أحد من المخلوقين ، المخفية سرائره عن الحكماء وذوى الالباب ، الذى يقيم فى كل زمان من يضاهى أهله ، والرءوف المتحنن .. الخ ».

وكذلك قوله فى المقدمة الثالثة :

" لما علمت ـ أنا البائس الخاطىء ، الغارق فى بحار آثامه ، المفنى بالخطايا أيامه ، المتأسف على تفريط وتضييع شهور عمره وأعوامه ، بالامل والتسويف المفسدين لدينه وقوامه ـ وتحققت ماأنعم به السيد المسيح المخلص ـ لذكره السجود ـ على جميع بنى المعمودية الذى (كذا) اشتراهم بدمه العظيم .. الخ ." .

نخرج من هذه الظاهره ـ ظاهره تمكن القبط من التعبير باللغه العربيه ـ بنتيجه جديده ، أذ لما كان التعبير الفنى بلغه ما مرحله متأخرة تأتى بعد مرحلة المعرفة العادية لهذه اللغة .. كان ذلك دليلا على أن سكان البلاد الاصليين قد أعتنقوا هذه اللغة وأستعملوها فى حياتهم اليوميه منذ زمن طويل .. ونستطيع أن نطمئن ـ استناداً الى نصوص ثابته ـ الى أن هذا الزمن يرجع الى القرن الثالث الهجرى .

نشـــوء اللغة العاميـــة :

على أن كتاب ساويرس المذكور يقدم لنا ـ فى ميدان اللغة ـ ظاهره أخرى لاتقل أهميه ولانفاسه عن الظاهره السابقه التى فزعنا من عرضها .

فالقارىء فى ذلك الكتاب سرعان مايلتفت الى كلمات وظواهر وتعبيرات هى تماما نفس مانجد نحن اليوم ونستعملها فى لغتنا العاميه التى نتبادل بها الحديث فى حياتنا اليومية الحاضرة .

والخطوره البالغه لهذه الظاهره اللغويه فى أمريـــن :

١ ـ المصريون فى القرن الرابع الهجرى كان تعربهم اللسانى قد

تم على أوسع نطاق ، بمعنى أن الشعب كله ـ لاطبقه بعينها منه ـ قد أصبح يتكلم العربيه بهذه اللهجه التى نراها فى كتاب ساويرس .

٢ ـ لما أعتنق المصريون اللغه العربيه وأصطنعوها لسانا ، ظلوا محتفظين بخصائصهم اللغويه الاصليه من جهه ، وبروحهم الفنيهة الخاصه فى التعبير من جهه أخرى .

وهذه أمثلة توضح ذلك مأخوذة من كتاب ساويرس المذكور .

أولا ـ كلمات قبطية ويونانية معربة :

لما تكلم المصريون العربية لم يعن هذا أن اللغة القبطية امحت تماما .. وأنما أصبح كثير من الفاظها ـ وخاصه مايتعلق بالشئون العملية ـ ينطق نطقا عربيا . وينطبق هذا أيضا على اللغة اليونانية ... مثال ذلك :

أواسى (جمع وسية OUSIAI
قيراط KERATION
أى ضيعة) :

قانـــــون : KANON
كوره (أقليم) : KHORA
كـوم (قريـة) : KOME
طـــــوب : TOBI
الخـــــن : OYENT
شونـــــة : CHENI
شراقـــــى : CHARKE
ويبـــــة : WIPI
أردب : ERTOB
قنديـــــل : KANDELE
ناموس (قانون) : NOMOS

ثانيا ـ كلمات عربية ممصرة :

فى لغتنا اليومية كلمات عربية خالصة ، ولكنها تستعمل استعمالاً بيئيا خاصا .. وفى كتاب ساويرس شيء كثير من ذلك ،

مثل :
البطالة : القبيحة (وفى القاموس : رجل بطال : ذو بطال ، بين البطول) .
تخلينا : تتركنا . حس : صوت .
أختل : جن . العالم : الناس (وفى القاموس : العالم : الخلق كله ، أو ماحواه بطن الفلك).
بحرى : الشمال .
قبلى : الجنوب .
مداس : حذاء .
ثالثا ـ ظواهر لسانية :
١ ـ قلب الذال المعجمة دالا مهملة : هذه ظاهرة موجوده فى الكتاب كله مثل : سادج ـ الارتدكسيون .
٢ ـ قلب الثاء المثلثه تاء مثناه : تشيع هذه الظاهره فى الكتاب كله كذلك ، ومن أمثلتها الواضحة : الارتدكسيون .
٣ ـ قلب الظاء ضادا : ينضف (ينظف) .
٤ ـ قلب الضاد ظاء : الفضيع (الفظيع) .
٥ ـ تخفيف الهمزه : ياكل ـ ملانه ـ جاب الشىء (جاء به)
رابعا : ـ ظواهر نحويه :
١ ـ الجمع على غير قياس : أبهات (أباء ، جمع : أب) .
٢ ـ تأنيث كلمه : مركب (مركب صغيره) .
٣ ـ الحاق ياء المخاطبه بالماضى : جرحتى ـ أخرجتى ـ تركتى ـ مضيتى .
٤ ـ الاتيان فى الفعل المسند الى الظاهر بعلامة التثنية أو الجمع (لغه أكلونى البراغيث) :
تشيع هذه الظاهرة فى الكتاب كله .
مثل :
ملكوا المسلمون الاسكندرية ـ ماتوا نساؤه وغلمانه .

٥ ـ همز غير المهموز : أباع ـ احرم (وفى القاموس : أحرم بمعنى : حرم لغة ضعيفة) .
٦ ـ الصفة المشبهة : حنين (حنون) ـ شجيع (شجاع) .

خامســـا ـ تعبيرات عربيه مصريه الروح :

١ ـ عاد بقلة حياء الى الاسكندرية
٢ ـ طول روحك على
٣ ـ كان كلامه كالعسل
٤ ـ وضع مقالات تجديف وكفر بلسانه المستحق القطع .
٥ ـ لتوحله فى الزيجه .
٦ ـ أمض وشاور نفسك
٧ ـ سقط الرجل على الارض وانقطع حسه .
٨ ـ أقاموا على هذه القضية (على هذه الحال)..

أمـــا بعـــد ..

فهذا العرض عرض عام وسريع لمسأله من أهم المسائل التى تتعلق بحياة اللغة العربية وتاريخها فى مصر .. واذا كانت النتائج التى وصلنا اليها هنا تساعد على تحديد الزمن الذى تكلمت فيه مصر العربية ، مغيرة بذلك لسانها للمره الاولى فى تاريخها ، فأنها فى الوقت نفسه تساعد على تحديد الزمن الذى تبلورت فيه القومية العربية فى مصر التى أصبحت منذ ذاك عضوا مهما فى الاسره العربية الكبيرة ، ثم لم تلبث الحوداث والتطورات التاريخيه من جهة ، وأصالة مصر الحيوية من جهة أخرى ، ان اسلمت الى مصر الدور القيادى الرئيسى فى حياة العالم العربى .

بين التاريخ والتطور

يؤمن " الامناء " فيما يؤمنون به من منهج البحث الادبى بنظريه الاقليميه ، فيرون أدب الجماعه من الجماعات كائنا حيا يمارس حياته فى بيئه ماديه هى مجموع المقومات الطبيعيه للمكان الذى تحيا فيه الجماعه وبيئه معنويه هى مجموع ضروب النشاط الحيوى الذى تمارسه هذه الجماعه فى أقليمها . وهم لذلك يرون واجبا على الباحث الادبى الاحاطة بما حول الادب قبل الاقدام على تناول الادب ذاته بالنقد أو التأريخ .. ومن هنا كانت أهميه الدراسات التى تعنى بالبيئه المصريه فى جانبيها المادى والمعنوى بالنسبه الى المشتغلين بالادب المصرى . ومن أحدث الجهود فى هذا المجال عام ١٩٥٦ .. كتاب " أثار حضاره الفراعنه فى حياتنا الحاليه " الذى عالج فيه مؤلفه الاستاذ محرم كمال كشف مافى الحياه المصريه الحاليه من عادات وتقاليد ، وأفكار وقصص والفاظ ذات أصل فرعونى . والكتاب لاشك فى فائدته للقارىء العادى والباحث المختص ، الى مايمتاز به من سهوله وخفه روح . ويهمنى ، كواحد من العاملين فى حقل الادب المصرى ، معنى بكل مايتصل بهذا الادب بخاصه وبالحياه المصريه بعامه ، أن أسجل الانطباعات التى تركها عندى الاطلاع على هذا الكتاب .

١ ـ قضية وهدف :

الحياة المصرية الحالية تكاد تكون صوره كامله لنفس الحياه التى قامت فى مصر الفرعونيه منذ آلاف السنين فليس هناك فرق حقيقى

بين المصرى الحديث والمصرى الفرعونى .

هذه هى القضيه التى يريد المؤلف أثباتها بهذا الكتاب ، أو هذا هو الهدف الذى يريد أن يبلغه عن طريقه .

٢ - روح المحافظة :

ثبات الحياة المصرية يرجع - فى رأى الاستاذ المؤلف - الى روح المحافظه " فالواقع أننا لانعرف شعبا فى العالم اجمع أشد محافظه من الشعب المصرى على تقاليده وعاداته . (مقدمه - ص ٥) ، والفلاح هو المصرى النموذجى فهو الوعاء الحى الذى أدخرت فيه الحياه أساليبها وحفظ فيه المجتمع تقاليده ، فالفلاح الحالى لايزال يشبه الذين عاشوا منذ أربعه آلاف سنه تمام المشابهه (مع فارق اللغه والدين) ، أما ملامحه وطريقه معيشته وأدوات الزراعه التى يستعملها والمنازل التى يسكنها والعادات التى يزاولها والتقاليد التى يسير عليها فهى مصريه فرعونيه فى روحها وشكلها (مقدمه ص ٦) .

" وهو الذى حافظ على ماورثه من تقاليد وعادات ظل يتلقفها من أسلافه ، وينقلها وديعة الى خلفائه جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن .. " (مقدمه ص ٦) .

ولعل من الاسراف أن نعد المحافظه طبعا أصيلا فى الشعب المصرى يجعله أشد شعوب العالم محافظه ، فما هذه المحافظه التى نراها فى أكمل صورها فى الفلاح سوى مظهر للسلوك الجماعى (Folk - Ways) الذى فرضته على الجماعه المصريه أوضاع سياسية وأقتصادية ثابتة لم يتناولها التغيير طوال تلك الالاف من السنين . واذا راعينا أن أختراع المحراث فى بدايه عصر الاستقرار الزراعى كان له أضخم الاثار الاقتصاديه فى المجتمع المصرى ، كما كان لاستعمال النحاس فى بدايه عصر المعادن (٣٣٦٠ ق . م) أضخم الاثار الاجتماعيه والحربيه فى المجتمع نفسه .. أذا راعيا هذا أستطعنا أن نتصور الاثار الهائله

التى يمكن أن تنال الفلاح الحالى عندما يسود التعليم وتستعمل الالات الزراعيه الحديثه وتقوم صناعات كبرى فى مصر . عندئذ يتخلى الفلاح عن تقاليده وعاداته وأساليبه الحاضره ويتحرر من هذه المحافظه ويكيف نفسه وفق الاوضاع الجديدة . ولاشك فى أن كلا منا يعرف الكثير ممن نقلهم العلم أو الثراء من حياة الفلاحين الى حياه المدنيه ، ومن السهل جدا ملاحظه التطورات التى مر بها هؤلاء الافراد .

٣ ـ تفسير آخر :

فى الفصل الاول عرض شيق للعادات المصرية القديمة الباقية فى مصر الان ، وهذه العادات دينيه وخلقيه وعمليه . ولست أتصدى لمناقشة هذه العادات من حيث قيمتها التاريخيه ، وأنما لفت نظرى أن الاستاذ المؤلف يرى هذه العادات طباعا أصيلة فى نفوس أجدادنا الفراعنه ورثناها نحن عنهم ، وهذا هو سر بقاء هذه العادات حتى اليوم .

وأعود فأقول أن ثبات ظروف الحياه على ماكانت عليه أيام الفراعنه هو المسئول عن أحتفاظ هذه العادات ببقائها . فحرص الفلاح على التبكير فى الزواج والاكثار من النسل (ص ١٠) ضروره أقتصاديه يلجئه اليها حاجته الى اليد العامله أبتغاء زياده الانتاج ليفى بما عليه للسلطة الحاكمة من جهه وليحصل على قوته هو من جهه أخرى . ولما كان الفلاح قد ظل دائما القاعدة الثابتة للهرم الاجتماعى فى مصر ، يحمل فوق عاتقه سائر الطبقات الاجتماعيه ويرزح تحت ضغطها ، لم يكن عجبا أن يسعى كل مصرى الى أن يدخل الى الطبقة الحاكمة عن طريق الوظيفة الحكوميه وتنشأ فى المجتمع المصرى عاده التمسك بوظائف الحكومه والتعلق باذيالها (ص ١٠ ـ ١١) ، أما مايبديه الموظف المصرى من ضروب المداهنة والمصانعة للرؤساء أبتغاء مرضاتهم (ص ١١) فخلق من الطبيعى أن ينبت فى جو الحكم الاستبدادى

. وأعتقد أن الاستقرار الذى يلجىء اليه الاشتغال بالزراعه هو المسئول عن عزوف المصرى عن الهجرة وكراهيته الاغتراب (ص ١١) . ومن الممكن رد أحتفاظ المصريين بأعتقادهم فى السحر (ص ١٣ ـ ١٥) ، والحسد (ص ١٦) ، والطيره (ص ١٦ ـ ١٧) ، والزار (ص ١٨ ـ ١٩) الى بقاء عقليتهم فى نفس المستوى الميتافيزيقى أو الغيبى وفق قانون " الدرجات الثلاث " لاوجيست كونت وعدم أنتقالها بعد الى الدرجة اليقينية . والى هذا السبب نفسه يمكن رد عباده الشمس والنباتات والحيوان التى ماتزال محتفظه ببعض صورها فى معتقداتهم (ص ٨ ـ ١٠) .

أما بقاء منازل الفلاحين (ص ٢٠ ـ ٢١) وأدوات الفلاح (ص ٢١) على صورتها الاولى فيفسر بأن الفلاح مازال يحيا فى نفس الظروف الاقتصادية والحضارية الاولى .

٤ ـ٠ الرحمة والنور :

فى الفصل الثانى عرض شيق كذلك لما ورثناه من العادات الجنازيه عن قدماء المصريين . ومن هذه العادات العمل على تحقيق النور للميت فى قبره سواء بأيجاد النور الفعلى أو بالدعاء لـه ، وأود أن أضيف أن هذه العادة كانت من أهم ماحرص عليه الناس فى مصر غداه أصبح الاسلام لهم دينا .. وقد سجلت شواهد القبور التى ترجع الى القرون الثلاثة الاولى للهجرة أمثلة كثيرة للدعاء للميت بالنور والرحمة وغيرهما كقولهم : " اللهم لقنه حجته ، ونور علية قبره " ، " اللهم أرحمه ؛ ووسع عليه مدخله ، ونور له فى قبره " ، " اللهم أفسح له فى قبره ، ووسع عليه مدخله ، وأضىء له فيه ، وأنس وحشته ، وأرحم غربته " . (راجع :
SAUVAGET ET WIET COMBE REPERTOIRE CHRONALAGIQE D , EPIGRAPHIE ARABE
Repertoire Chronologique D,epigraphie Arabe

٥ ـ بقايا لغوية :

الفصلان الثالث والرابع من الكتاب فصلان مهمان بقدر ماهما ممتعان. فأولهما خاص بالالفاظ المصرية القديمة الباقية فى لغتنا العاميه ، فى حين يتناول ثانيهما الاسماء المصريه القديمة الباقية فى مصر للان . وأنا لاأعرف القبطية ولا الهيروغليفية ، ولذلك أقدم الملاحظات التاليه بكل حذر :

١ ـ يرى المؤلف أن كلمه " يأوأ " تقال على الطفل أذا أكثر من البكاء كلمه قبطيه بمعنى يعاكس (ص ٣٨) ربما كانت نفس الكلمة العربيه التى تستعمل فى قولنا : قاقت الدجاجه أى صوتت (القاموس : ماده القوق) .. يرجح هذا أن البكاء أدخل فى الصوت منه فى المعاكسة .

ب ـ" سخم " بمعنى نجس أو لوث أو غطى بالوحل قبطيه لفظا ومعنى (ص ٣٩) . وفى العربيه تدل هذه الكلمه على السواد : فالاسخم = الأسود وسخم وجهه = سوده ، والسخام = الفحم وسواد القدر (القاموس ـ ماده : السخم).. وربما دعانا هذا الى التردد قبل الجزم بنسبه هذه الكلمه الى أى من اللغتين .

ج ـ لفظه « ياما » " فى قولنا " دا شىء ياما " أو قولنا : وياما من ده كتير " هى الكلمه القبطيه " آما " معناها كثير (ص ٤٠) . ولكننا نقول عاده : ياما أرق النسيم !.. ياما أمر الفراق !.. ولما كان هذا هو أسلوب التعجب العربى المعروف فربما لم تكن لفظه " ياما " هذه سوى ماالتعجبية مسبوقه بأداه النداء : يا .

د ـ لفظه " آش " فى مثل قولنا : " عاوز آش ؟ " أو " أش " فى قولنا : " وأنت أش لك فى كده ؟ " هى القبطيه " آش " وأصلها الهيروغليفى " آخ " ، وهى حرف أستفهام بمعنى ماذا .

هكذا يقول المؤلف (ص ١٤) . ولعله ليس هناك مايمنع أن تكون هذه الكلمه هى الصوره التى انتهت اليها كلمتا " أى شىء " بعد طول الاستعمال فى اللغه اليوميه . يرجح هذا وجود هذه الكلمة

لفظاً ومعنى على لسان الناس فى أقطار عربية غير مصر .
هـ ـ وكذلك لعل كلمه " شبار " التى يذكرها المؤلف على أنها قديمه بمعنى عجيب أو غريب (ص ٤٤) هى التركيب " أى شىء بار به ؟ " .
و ـ لفظه " طمس " فى قولنا " روح البعيد أنطمس دهيه تطمسك " هى نفس الكلمه القبطيه بمعنى : دفن (ص ٤٥) . ويجوز جدا أخذ هذه الكلمه بالمعنى العربى للطموس وهو الدروس والامحاء (القاموس ـ ماده : الطموس)
ز ـ كلمه " سك " فى قولنا : " كان ماشى يسك الكعب " ليست عربيه وأنما هى كلمه قبطيه ومعناها جر أو سحب (ص ٤٧ ـ ٤٨) . وأحب هنا أن الاحظ أننا نقول فى لغتنا العاميه : " سك الباب " بمعنى أغلقه ، وهى نفس الكلمه العربيه (صك) بعد تخفيف الصاد وهو ماتفعله العاميه فى كلمات كثيره أخرى مثل : السندوق (الصندوق)، السدر (الصدر) ، السمغ (الصمغ) ...الخ . ولما كان من معانى الصك الضرب الشديد كما فى قوله تعالى : " فصكت وجهها للجبين " جاز أن يكون قولنا : " كان ماشى يسك الكعب " أى يصكه بمعنى يضربه بالارض ضربا شديدا . (أنظر القاموس ـ ماده : صك) .

وأخيرا فلا شك فى أن الكثير من كلماتنا العامية فرعونى الاصل ، ولكن ينبغى الا ندع الميل الى تفسير الامور تفسيرا بعينه يحجب عنا أحتمالات التفسير الاخرى الممكنة .

٦ ـ الوراثة :

يرى الاستاذ المؤلف أن كل تلك العادات والتقاليد والافكار والاخلاق التى تحدث عنها فى كتابه أنما أنتقلت من الاباء الاولين الى أجدادهم الحاضرين عن طريق الوراثه .

التبكير فى الزواج والاكثار من الاولاد والنسل " عاده ورثناها أيضا عن المصريين القدماء " (ص ١٠) . نحن اليوم نستنكر

التهافت على الوظيفه الحكوميه " ولكننا ننسى أننا ورثنا هذه العقليه عن أجدادنا (ص ١٠ ـ ١١) . نحن نهزأ بما يبديه الموظفون من ضروب المداهنه والمصانعه للرؤساء أبتغاء مرضاتهم " ولكننا نسينا أن هذا الداء مولود فينا توارثناه عن الاباء والاجداد " (ص ١١) . نحن نثور عندما نضطر الى الابتعاد من مواطننا الاولى " ولكن يجب الانلام على ذلك ، فأن الاغتراب قد ولد فينا كرهه حين ولدنا ، وورثناه ضمن التركه التى خلفها لنا الاجداد (ص ١١) .. " ثم أن الكثير مما نشكوه من عيوب يجرى فى دمائنا بحكم الوراثه من آبائنا الاقدمين " مثل التمسك بالمظاهر الكاذبه (ص ١١ ـ ص ١٢) .. أما كرم المصريين وأسرافهم فى الولائم والافراح فهما موروثان أيضا " (ص ١٢) . أما ماندعوه الان بالسحر فقد ورثناه بأكمله عن المصريين القدماء ، (ص ١٣) . " وكل مالدينا من غرام بالتمائم والتعاويذ والاحجبه ... كل هذه أن هى الا عادات ورثناها عن أجدادنا القدماء " (ص ١٥) . " كان الطب فى مصر القديمه يختلط أختلاطا كبيرا بالسحر ... وقد ورثنا شيئا من قدماء المصريين فى هذا الباب " (ص ١٧) . " المسأله ـ الزار ـ فوق هذا وذاك تقليد ورثناه أنحدر الينا ضمن التركه التى خلفها لنا المصريون القدماء " (ص ١٩) .

واذا كنا قد رفضنا من قبل فكرة المحافظة فأننا نقابل فكره الوراثه الان بتحفظ شديد . فكل الافكار والعادات والاخلاق التى ذكرها المؤلف لم تستطع أن تحتفظ ببقائها منتقلة عبر الاجيال والقرون لاننا تمسكنا بها وحافظنا عليها وتوارثناها ولكن لان أوضاع الحياه الاولى التى أنتجت هذه الامور (الاستبداد السياسى ـ الاقطاع ـ الاحتكار ـ المجتمع الزراعى) ظلت قائمة طوال تلك الاجيال والقرون فأرغمتنا على الابقاء عليها . وحتى اذا سلمنا أن فى الامر وراثه وجب أن نكون على وعى بأنها ليست وراثه

بيولوجيه تتم عن طريق الكروموسومات وأنما هى وراثه ثقافية تتم اجتماعيا عن طريق التكرار أو التقليد . وبذلك يمتنع أن يقول مثلا أن الكثير مما نشكوه من عيوب يجرى فى دمائنا بحكم الوراثة من آبائنا الاقدمين مثل التمسك بالمظاهر الكاذبه مع ملاحظه قاعده على أعظم جانب من الاهمية فى علم الوراثة وهى ان الصفات المكتسبه لاتورث . وتكاد كل المتوارثات التى سردها المؤلف أن تكون من هذه الصفات .

٧ ـ بين التاريخ والتطور :

أعود فأقول أننى لاأعلق بشىء على الحقيقة التاريخية فى الكتاب ، وأنما يعنينى منه فكرته وهدفه وقضيته اذ يريد أثبات أن مصر الحاليه تكاد تكون صوره كامله من مصر القديمه . والمؤلف لايعلل هذا بجمود الاوضاع وأنما يرى فيه ثباتا للروح المصريه وأستمراراً لها عبر القرون فآلاف القرى والدساكر بقيت محافظه على مصريتها . (ص ٦) وملامح الفلاح وادواته وتقاليده .. الخ " مصريه فرعونيه فى روحها وشكلها " (ص ٦) ، " الغزوات التى توالت على مصر لم تنل من مصرية سكانها (ص ٢٤) . وقد أوضحت فيما سبق أننا لم نتوارث عادات محتومة ولاتقاليد لامفر منها ، وأنما نحن قد توارثنا فى الواقع أوضاعا اجتماعية معينة حملتنا على ضروب بعينها من السلوك ، ولاريب فى أننا مغيرون من سلوكنا بقدر ماتتغير أوضاع المجتمع عندنا .

والقارىء لايفوته الفرح الذى يبديه المؤلف كلما عثر على شىء قديم فى حياتنا الحديثة ، وتلك هى فرحه المؤرخ الذى يود لو يبعث الماضى كله حيا . ونحن لانأخذ عليه ذلك الفرح التاريخى وأنما نشعر بالخطر أذ نسمعه يقول اننا " نعيش فى نطاق تركه خلفها لنا القدماء ، تشدنا اليها سلسلة من التقاليد والعادات ومختلف الاشياء التى تربطنا بها ربطا وثيقا لانجد الى فصم عروته سبيلا .

فنحن كما كنا ، وستظل دائما أبناء للفراعنة وأنا بهذه التركه بكل مافيها من محاسن وعيوب لجدٌ فخورين" (ض ٢٢) والمؤلف ليس محباً للقديم على علاته فحسب ولكنه يائس كذلك من أصلاح مافى هذا القديم من عيوب لو حاولناه " فأن مئات " من العادات الجنازية نراها ونشدها كل يوم ، وقد ضج العلماء والمفكرون من انتشارها وأنبرى الكتاب لمحاربتها ، ومادروا أن البشر يصعب عليه أن يستأصل عادات أستمدت قوتها من حكم الممارسة والمزاولة آلاف السنين (ص ٢٤) . أن هذا الاتجاه يكاد يخرج بالكتاب عن كونه وثيقة تاريخية الى كونه دعوه الى تجميد الحياه المصرية ومقاومة تطويرها حتى تظل قائمه فى قوالبها الفرعونية القديمة التى تعجب المؤرخين وتخلب ألباب الاثريين .

أننا نجل التاريخ ونحرص الحرص كله على الاثار . ولكننا فى الوقت نفسه لانرضى للتاريخ أن يقف عند مرحله بعينها لايعدوها ، بل نفتح أمامه الطريق ليسير ويتطور ويصنع آثارا جديدة ، لاننا بذلك نفتح الطريق أمام الحياه نفسها لتسير وتتطور وتصطنع صورا وقيما واتجاهات جديدة .

فهرست

صفحة

روايات الهلال تقدم :

الســـيل والـــجبل

(دراما يمنية)

تأليف
الدكتور عبد الغفار مكاوى

تصدر ١٥ أغسطس ١٩٨٥

رقم الايداع : ٤٤٢٥ ـ ١٩٨٥م

الترقيم الدولى : ISBN٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ١٨٢ ـ ٣

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ الكويت ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٢٣ تليفون ٧٤١١٦٤

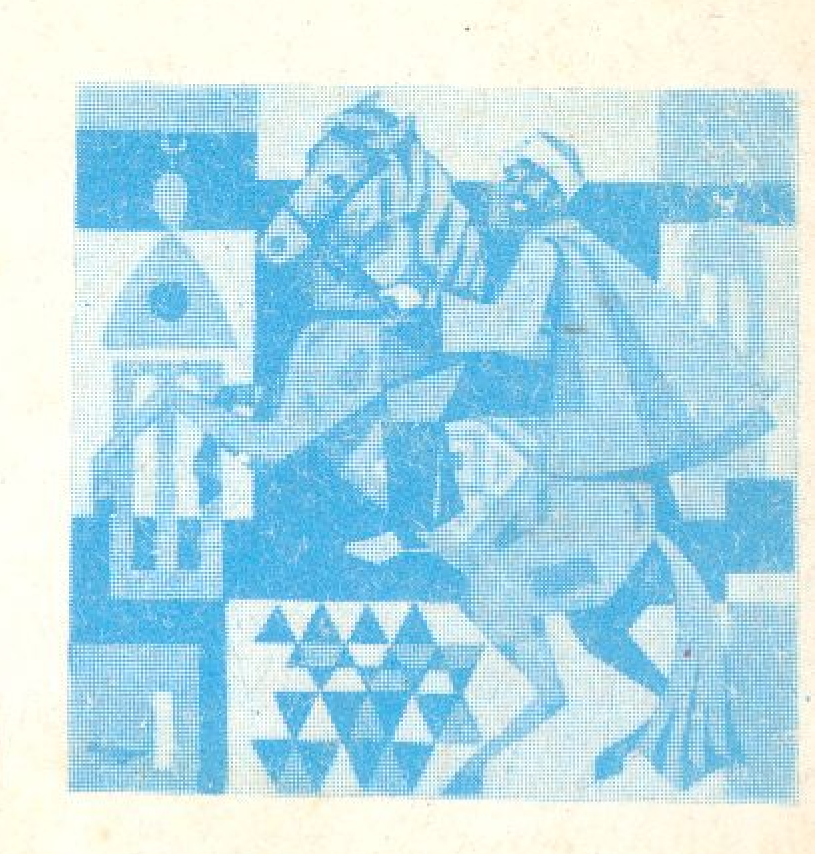
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور فى الخارج للعدد العادى فئة ٦٠٠ مليم :

سوريا ١٠٠٠ق . س ، لبنان ١٠٠٠ ق .ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٩٠٠ فلس ، العراق ٢٠٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، السودان ١٥٠٠ مليم ، تونس ١٥٠٠ مليم ، المغرب ١٥٠٠ مليم ، الخليج ٨٠٠ فلس ، داكار ٨٠٠ فرنك ، ايطاليا ٢٠٠٠ ليرة ، البرازيل ٥٠٠ سنت ، غزة والضفة ٥٠ سنت ،



هــذا الكتاب

هذه محاولة تجمع بين جهد العالم ورؤية الفنان ، وقد قل اجتماع هذين الاثنين معا في واحد هذه الأيام .. المحاولة تتجه الى رؤية واقع التغير الذى حدث فى مصر لحظات الفتح الاسلامية ـ الى الكيان العربى المصرى ، والى خلق النموذج المصرى الجديد بامتزاج الوافدين بالعروبة والاسلام ، بأهل البلاد وأصحاب النيل وورثة اعرق الحضارات وأكثرها استمرارا على مر التاريخ .. والمحاولة تقدم لنا لقطات لايستشفها الا فنان قصاص ولا يدقق فى حقائقها التاريخية الا عالم متخصص وقد كانت رسالة الدكتوراه للدكتور عبد الله خورشيد عن القبائل العربية فى مصر دراسة علمية لهذه القبائل لا بعد الفتح وحسب ولكن منذ بداية التاريخ واحتكاك وادى النيل بشبه
وجاء حس الفنان ليقدم هذه التراكمات العلمية من زوايا
يصبح فيها الانسان هو البطل والبطل للحدث وهو
والمتأثر به والخالق لغده الذى توحدت فيه الهوية وا
المتدفق عبر التاريخ .. والحس القصصى واللغة ا
والاسلوب المتميز يعيدنا الى تذكر الفصول الادبية ا
أثرت حياتنا الادبية فى بدايتها الاولى والتى اختفت
الادباء الجدد لما تحتاجه من ذخيرة علمية وروية بانية
التعبير .. من هنا كان الكتاب فى هذه الايام درسا ادبيا
وتاريخيا نحتاجه ليذكر ويعلم ويمتعنا ..

٦٠ قرشا

أغسطس ١٩٨٥ * أوراق مصرية : د . عبد الله خورشيد * العدد ٦١